بسم الله الرحمن الرحيم

العدد الخامس

السنة الأولى

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات
مـ
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
وللطلاب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

غرة رجب سنة ١٣٧١ — ٢٧ مارس سنة ١٩٥٢



هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

عدل الله :

نحن فى حاجة فى هذا الزمان ، وفى كل زمان ، إلى أن نرجع إلى الله سبحانه وتعالى ونتذكر ما أوصانا به من خير ، فنستزيد منه ، وما نهانا عنه من شر فنتجنبه . ولقد غشيت هذه الأمة غواشى الظلم ، وانسدل عليها من محنه وأرزائه مايجعلنا نستروح نسمات العدل الإلهى فى كتاب الله ، وكيف يكون ، لعل الله يريح نفوسنا ؛ فنلزم طريقه ونعدل عن طريق الفتنة ، ولا نتمادى فى اتباع الهوى ؛ فقد أضلنا عن سبيل الله .

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » .

فعدل الله كامل شامل ، لا يختص به فريقاً دون فريق ؛ هو عدل يشمل الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

العدد الخامس

السنة الأولى

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربى

سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

الاشتراكات

ص
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة

وللطلاب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

غرة رجب سنة ١٣٧١ — ٢٧ مارس سنة ١٩٥٢



هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبى

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

عدل الله :

نحن فى حاجة فى هذا الزمان ، وفى كل زمان ، إلى أن نرجع إلى الله سبحانه وتعالى ونتذكر ما أوصانا به من خير ، فنستزيد منه ، وما نهانا عنه من شر فنتجنبه . ولقد غشيت هذه الأمة غواشى الظلم ، وانسدل عليها من محنه وأرزائه مايجعلنا نستروح نسمات العدل الإلهى فى كتاب الله ، وكيف يكون ، لعل الله يريح نفوسنا ؛ فنلزم طريقه ونعدل عن طريق الفتنة ، ولا نتمادى فى اتباع الهوى ؛ فقد أضلنا عن سبيل الله .

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » .

فعدل الله كامل شامل ، لا يختص به فريقاً دون فريق ؛ هو عدل يشمل الناس

جميعاً : غنيهم وفقيرهم ، قريبهم وبعيدهم ، عدوهم وصديقهم ، مسلمهم وغير مسلمهم . وقد جعل الله تعالى المرجع فى ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله حتى لاتكون فتنة وحتى لايتبع الناس أهواءهم فى سن قوانين يزعمون أن من اتبعها ومن حكم بها فقد عدل ، ومن لم يحكم بها فقد جاوز العدل .

قال تعالى : « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » .

فطاعة الله واجبة ، وطاعة رسوله واجبة ، وطاعة أولى الأمر واجبة ما التزموا كتاب الله وسنة رسوله . فإن اختلفنا وجب أن نرد أمورنا إلى الله ورسوله ، ولا شك أننا نجد فيهما الحكم المراد : « مافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ » . « وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ — الْفَاسِقُونَ — الْكَافِرُونَ » .



فهذا هو القانون الذى يرجع إليه العادل فى عدله ، ومهما التمس العدل فى غيره فهو ظالم أو فاسق أو كافر . ولن يقبل الله من أحد أن يرجع إلى غيره وغير رسوله عند التنازع .

وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .

وقد يحكم الإنسان بحكم الله ، ولكن الهوى يدخل على قلبه ، فيؤثر قريباً أو يحابى صديقاً ، ويظلم بعيداً أو عدواً أو ذمِّياً ؛ فلا يكون متبعاً لأمر الله إلا فى ظاهر الأمر دون حقيقته ، ويكون عمله من التدليس الذى إن خفى على الناس فلا يخفى على الله الذى يعلم السر والنجوى ؛ لذلك كان تحذير الله من مثل ذلك شديداً ، تنقل فيه عز وجل من الأمر بالعدل بصفة عامة إلى التحذير من أسباب الميل التى قد تسوغها الأهواء للنفس الضعيفة التى لاتخالطها بشاشة الإيمان الصادق .

قال الله تعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

فهذا خطاب للولاة والأمراء والحكام ، ويدخل فيه جميع الخلق ؛ ففى الحديث :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالإمام راع وهومسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهومسئول عنهم ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . وقال تعالى : « وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .

وفى النهى عن محاباة الأقارب يقول الله عز من قائل : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا » .

ويقول فى النهى عن ظلم الأعداء : « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلاَ يَجْرِ مَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

ومن أروع الآيات التى نزلت فى تحقيق العدالة ما نزل فى قصة ابن أبيرق يكشف للرسول عليه السلام عن حقيقة الأمر فيها وما دبره الخائنون لصرفه عن الحق حتى كادوا يوقعونه فى ظلم برىء لم يستحق إثماً ، ويسمهم بما هم أهله .

سرق ابن أبيرق درعاً لجار له ، فأمر رسول الله عليه السلام بقطع يده ، ففر ، وجاء أهله إلى الرسول وزعموا له أنه لم يسرق الدرع وإنما الذى سرقها هو فلان اليهودى ، وما زالوا به حتى مال إلى قولهم ؛ فأنزل الله هذه الآيات التى تعتبر دستوراً لأعظم نوع من العدل الصرف ، العدل الذى يشمل الإنسانية كلها ، العدل الخالص البرىء من الهوى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً . وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً . وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً . يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً . هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً . وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيما . وَمَنْ يَكْسِبْ

إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً . وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً . وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » إلى آخر هذه الآيات من سورة النساء .

سقنا هذا القرآن لنتدبره ونعرف كيف يكون العدل الذى فرضه الله علينا ، ونقيس ما نحن عليه بهذا المقياس الربانى ؛ لنعلم أين نحن من ذلك فى تفكيرنا وما يجول بخواطرنا ، وفى أقوالنا وأفعالنا فى أنفسنا وأقاربنا ومن نحب ومن نكره ، ونعرف مقدار ما أصبنا من خير بحرصنا على الحق والعدل ، وما أصبنا من شر ببعدنا عنه والتفريط فيه ؛ فنعود إلى الله ونستغفره ونرجو رحمته .

وليعلم المسلم أنه لايكون مسلماً حقاً إلا إذا أصبحت عقيدته جزءاً لايتجزأ من أخلاقه وسلوكه ؛ فيكون عادلا مع الناس جميعاً ، ويحذر نوازع الهوى أن تميل به عن هذا العدل مع أقرب الناس إليه ؛ فلا يذكر إخوانه بسوء ، ولا يغتابهم ، ولا يلمزهم ؛ فإن أكثر الشرور إنما تنشأ عن مثل ذلك .

ثم ننظر كذلك فيما يعتبره غيرنا عدلا وهو غير ذلك ؛ فإن هؤلاء لا يعدلون — إذا عدلوا — إلا بين بنى جنسهم . أما بينهم وبين غيرهم فالعدل أبعد ما يكون منهم . وأمثلة ذلك كثيرة يمكن أن يقرأها الإنسان فى كل تصرفاتهم وأحكامهم ؛ حتى يبدو ديننا لنا على حقيقته ، ونعلم أن الله أراد ببنى الإنسان الخير فى اتباعه والاهتداء بهديه والعمل به . وصدق الله العظيم :

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

(٥)

الإنسان والشيطان :

« ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله [١] » .

روى النسائى والبيهقى وابن حبان فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟؛ فعصاه فأسلم فغفر له .. فقعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتذر دارك وأرضك وسماءك ؟ ؛ فعصاه فهاجر .. فقعد له بطريق الجهاد فقال له : تجاهد وهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتُنكح المرأة ويُقسم المال ؟ ؛ فعصاه فجاهد » .

ومَن فى الناس كرسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف لنا ببيانه المشرق وعلمه العلوى عن وجوه الحقائق وخفايا المعانى حية نابضة تغدو وتروح فى تجارب الناس وواقع حياتهم اليومية ؟

فهو عليه السلام فى هذا الحديث يحدثنا عن مسالك ثلاثة أصيلة من التى يسلكها الشيطان لإضلال الناس وإبعادهم عن صوابهم الروحى ..

ولقد تحدثنا فيما مضى عما يعمد إليه الشيطان من إثارة غرائز المرء وإهاجة قواه الحيوانية ليطمس مايستطيع من صوابه ويستدرجه إلى مايشاء من الضلال .. ولا أقل من أن نعرف من نفوسنا مايعرفه الشيطان منها من مواطن الفتنة ووسائل الضلال .

فهذه الغرائز لايصلحها فى نفس المرء إلا أن تكون كالهواء الرهو يصفو به الأفق

---

(١) النساء ١٨٨ .

ويعتدل به وضع كل شيء ؛ فإذا خطرت أو تحركت وجب أن تكون كالنسيم أو الرُّخاء الوديعة المقبلة بالمنفعة ولطف المناخ .. أما إذا أرخى لها صاحبها العنان ، وأطلق لها أن تذهب أنّى شاءت فإنها تغدو عاصفة مضطربة تثير الضباب والغبار فى سماء ذهن المرء وأفق صوابه الروحى على ما مر بنا من شأن امرأة العزيز وشأن موسى عليه السلام .

وأحب أن نستحضر فى أذهاننا صورة العاصفة الجامحة وقد أقبلت بضبابها وغبارها ، وانتشرت حولنا فى كل مكان حتى ملأت علينا الأفق ، وحجبت عنا السماء ، وكسفت فى أنظارنا شمسها الوضيئة المتوهجة ، ثم ليسأل كل منا نفسه : ماذا يرى حوله فى الأفق ؟ وماذا يصل إليه من نور السماء ؟ .

فإذا تمثلنا تلك الصورة فلنعلم أننا لم نبلغ بعدُ كشفَ النقاب عن كنه تلك العاصفة — عاصفة الغريزة — حين تمشى فى كيان المرء بضبابها وغبارها فتملأ آفاقه ، وتحجب صفو سمائه الباطنة وشمس صوابه الروحى الوضيئة ؛ فعلينا — إذا أردنا كشف ذلك النقاب — أن نتمثل العاصفة التى أقبلت على آفاقنا الدنيا ، أقبلت - ونعوذ بالله — وهى تحمل ضبابا لا كالضباب ، وغباراً لا كما نعهد من غبار .. ضباب من الظلام الدامس ، وغبار من السواد الحالك ، لا يبصر فيه المرء مما حوله شخص إنسان ، ولا شبح شجرة أو حيوان ، ولا يظهر له فى جانب من جوانبه خيط من نور ، إن هو إلا كِسَف السواد المتراكم بعضه فوق بعض ، إذا أخرج فيه يده لم يكد يراها ... ثم ليسأل كل منا نفسه : ماذا يرى من السماء ؟ وماذا يرى من شمسها الوضيئة المتوهجة ؟ .. فإذا تمثل ذلك كله فليعلم أن تلك العاصفة هى الغريزة حين تنطلق فى كيان المرء بغير زمام أو نظام ؛ وأن ذلك السواد الدامس هو تلك الغريزة نفسها كذلك ، إذ هى معنى غير نورانى ، وسر مظلم له من المادة طبيعة الظلمة ، فإذا انطلقت فى أفق المرء المعنوى فقد انطلق الظلام وانتشر القتام ، وتوارت سماؤه الباطنة ، وكسفت الشمس التى يتنزل منها صوابه الروحى .... وليسأل كل منا نفسه : ماذا يرى صاحب تلك الحال من وجوه الحق ؟ .. هل تبدو له قيم المعانى بما لكل منها من حرمة وقدسية ؟ أو تنطمس معالم تلك الحقائق وتغدو ساحة مهدرة الجوانب مقتحمة لكل مبتذل مستهتر ؟ .. وهل يقتحم المرء حماها القدسى — حين يقتحم — وهو مدرك شناعة ما يفعل ، ممتلىء بشعور الهيبة والتصون الواجبين لذاك الحمى ؟ أو أن ذاك الشعور قد زايله فى تلك الظلمة العاصفة فاستوت لديه المحارم بما ليست له حرمة ؟ .. وهل تلك الحال هى التى عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا يزنى الزانى — حين يزنى — وهو مؤمن ؛

ولايسرق السارق — حين يسرق — وهو مؤمن ؛ ولايشرب الخمر — حين يشربها — وهو مؤمن[1] » ؟

ذلك شأن الغريزة حين تنطلق فى كيان المرء بغير زمام ؛ ومن البديهى أن عصفها بصواب المرء ليس معناه استئصال مصادر النور الإلهى فيه ، بل معناه أن حائلا عرض بينه وبين تلك المصادر ، كما أن احتجاب الشمس فى اليوم العاصف ليس معناه انطفاؤها ولازوالها من سماء تلك الأرض ، بل هى وراء السحب العارضة متألقة الضياء باهرة اللألاء ؛ فإذا زالت تلك السحب عاد الضوء إلى الأرض سيرته الأولى ... فإذا سألت : ومتى يعود الضوء إلى أفق المرء ؟ تلقيت الإجابة من كل ماتقدم بأن الضوء محجوب عن ذلك الأفق بما ران عليه من أهواء النفس وظلمة الغريزة ؛ فإذا انقشع ذلك الران عاد إليه صفاؤه الفطرى ، ولعلنا الآن نمشى بإزاء نور قوله عليه السلام : « إذا زنى الرجل أُخرج منه الإيمان وكان عليه كالظلة ؛ فإذا أقلع رجع إليه الإيمان[2] » .



ولعل مما يؤنسنا فى هذا المقام أن نذكر الصورة الصادقة التى وصف بها القرآن حال أولئك المنافقين الذين يتذبذبون بين طائفتى الإيمان والكفر ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ فإذا كانوا مع المؤمنين واستمعوا لما يتلى عليهم من آيات الله والحكمة امتد فى آفاقهم شىء من نوره ، فإذا تحولوا بداعى المنفعة والهوى إلى أفق أهل الضلال كان لهم شأن آخر « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون صم بكم عمى فهم لايرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولوشاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير[3] » .

ولعل مما تهش له السرائر أن نرى سورة النور تتحدث عن مثل نور الله فى قلوب عباده كمشكاة فيها مصباح ، ثم تتحدث بعد قليل عن حال أولئك الذين حجبتهم أهواؤهم وشهواتهم عن ذلك النور فصاروا إلى تيه مظلم كثير القلق والعواصف لايستقر فيه الوجدان على قرار لخال بواطنهم « كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »[4] .

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائي .

(٢) رواه الترمذى والبيهقى .

(٣) البقرة ١٧ — ٢٠ .

(٤) النور : ٤٠ .

ولإرادة المرء أكبر الأثر فى تصريف أزمة تلك الغرائز ؛ فإن شاء أبقى على بصيرته وصوابه ، وإن شاء مضى فى هواه حتى يرين ظلام الشهوات والذنوب على قلبه ؛ ولعلنا فى ذلك نلم بشىء من معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أخطأ العبد خطيئة نكتت نكتة سوداء فى قلبه ؛ فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ؛ فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذى قال الله تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون [1] » .

وليس معنى هذا أننا ندعو إلى إعنات الغرائز أو استئصال شأفتها ، فذلك ما لا يرضى عنه الله لإنها بعض التقويم الذى برأنا الله عليه ، وأراد به أن تكون الذنوب من لوازم بشريتنا على ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » . ولكننا ندعو إلى السيطرة على زمامها ، والكف من طغيانها حتى لا تستمرىء السوم فى المرتع الوخم على نحو ما دعى إليه صاحب البردة .

وراعها وهى فى الأعمال سائمة   وإن هى استحلت المرعى فلا تسم

والناس يتفاوتون فى هذه المراقبة : فمنهم من لا مراقبة له ، ومنهم من أدرك من تهذيبها حظاً جعله من الأبرار ، ومنهم من جدت به همته إلى ماهو أعلى . . وبتفاوتهم فى تلك المراقبة تفاوتت حظوظهم من ظلمة الهوى والشهوة ، وصار لكل منهم من الصفاء الروحى بقدر ما عمل وجاهد ؛ قال الإمام ابن كثير : « الرين يعترى قلوب الكفار ، والغيم يعترى قلوب الأبرار ، والغين يعترى قلوب المقربين » .[3] ولعل الإمام الحافظ نظر فى الغين إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وإنه ليغان على قلبى » .

* * *

ذلك هو شأن الغريزة فى تغشية صواب المرء . . ولذا كان من أكبر عمل الشيطان أن يثير ضبابها ليخرج فريسته من النور إلى الظلمات . . ولذا كان من أهم ما عنى به رسل الله أو أهم ما عنوا به أن يكون لهم جهد مضاد يبطلون به عمل الشيطان ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا

---

(١) رواه ابن جرير والترمذى وقال حسن صحيح ورواه كذلك ابن ماجة والنسائى واللفظ له .
(٢) رواه مسلم .
(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ – ص ٤٨٥ .

فى حديثه الذى جعلناه غرة هذا المقال عن قعود الشيطان للمرء بثلاث سبل كبار هى جوامع سبل الخير للانسان : الإسلام ، والهجرة ، والجهاد . . وأنه استنفر فيه ما استطاع من قواه الغريزية ليحجبه بها عن صوابه ويرده إلى التى هى أخسر وأدنى . .

ولن نجد فى غير الإسلام منهاجا جامعاً لأصول التربية الروحية والاجتماعية وصدق التمييز لقيم المعانى كهذا الذى نجده فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وحسب المرء أن يفقه هذا المنهاج حق فقهه ليحرز نفسه من كيد الشيطان وليبطل زعمه الذى رمى إليه بقوله : « ولأضلنهم » . . ولا نستطيع أن نبسط القول فى ثلاثتها فلسنا بصدد ذلك ، وحسبنا الأولى شاهدا لنا فى هذا المقام . . فقد قعد له بطريق الإسلام فقال له : «تسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فعصاه فأسلم فغفر له »

وهذا التعليم الكريم يشير إلى الحقائق الآتية :

١ — أن الشيطان لا يريد للانسان أن يسلك سبيلا إلى خير . . والخير الذى لا تغيب معرفته عن الشيطان ليس ثروة تحاز ، ولا جاها تعلو به المنازل عند الناس ، ولا منصباً تساق إلى ساحته بضاعة النفاق والرياء ؛ وإنما هو سر من روح الله ، ومعنى أصيل ذو قيمة كريمة ، تهتدى به البصائر ، وتسعد السرائر ، وتعز الضمائر ، وتخلد به الباقيات الصالحات ... والشيطان يدرك ما قرره الإسلام من أن حيازة الباطل خسارة قاصمة ، وأن حيازة الحق هى الغنم كله : وأعمال المبطل كأعمال النائم الذى يحلم ، وأعمال المحق كأعمال اليقظ الذى يبنى أموره على حقائق وسنن ، فإذا قعد للانسان بسبيل الحق يصده عنه ، فلينظر أى تهلكة تراد له ؛ ولنفهم على ضوء ذلك شناعة الشر الكامن فى قوله : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ولأمر ما قعد لهم بسبيل الإسلام .

٢ — أنه استنفر فى الإنسان غريزة التقليد للسابقين ومتابعتهم على ما كان لهم من عادات ومعتقدات ومذاهب ، فقال له : دينك ودين آبائك ؟

ونحن نعلم أن التقليد أفق واسع من آفاق النفس ، كثير المسالك ، متشعب المناحى ؛ فهناك تقليد فرد لفرد ، وشعب لشعب ، وضعيف لقوى ، ومغلوب لغالب وخلف لسلف ، وتقليد فيما هو حسن ، وتقليد فيما هو ردىء ؛ ولكل ضرب من هذه الأضرب خصائصه التى تميزه وتمده بأسباب القوة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصر الكلام هنا على ضرب واحد منه فقط هو تقليد السابقين حيث تقوم الغريزة فيه على مجرد المتابعة ، والاستسلام لسلطان العادة ودفع الزمن ، لا على محض الإرادة وتمحيص الصواب .

ولسنا نخشى على الناس أن يقلدوا سابقيهم فى الضار من أمور المعيشة ؛ فإن واعظ المصلحة الخاصة فى أذهانهم أحجى من أن يدعهم إلى ما لا نفع فيه ، ولكن نخشى ذلك التقليد الذى يهدر أقدار الحقائق ، ويتعطل به فى المرء صوابه الروحى ، ويفرض عليه أن يستقبل الحياة بعينين مغمضتين ، وأنت تقرأ فى القرآن الكريم أنباء أولئك الذين طالما ردوا ما جاءهم من الهدى والعلم قائلين كلما جاءهم رسول : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » . وهو احتجاج كما ترى يفصح لك عن مبلغ مجانبتهم للمنطق ، وتعويلهم المطلق على برهان المتابعة وحجة التقليد .

وحين يتأمل المرء فى برهان المتابعة هذا ليعرف ما هو ، أو على أى سنة من سنن العقل يعتمد ، لا يجد أمامه شيئا ! ! إذ تتزايل تخيلات الوهم ولا يبقى تحت أشعة الفكر إلا تلك المحنة التى تقضى على الإنسان — وهو الكائن الممتاز بسعة الأفق وصدق التأمل — أن يعيش فى ظلال أوهام لا تثبت لما يثبت له نسج العنكبوت .

٣ — ويشير الحديث إلى أن الشيطان لا يكتفى بإثارة غريزة واحدة فى غرضه بل يستنفر فيه كل ما يستطيع من أهواء وحوافز يراها معينة له على ما يريد . . . فقد راح يستنفر مع غريزة التقليد حمية الجاهلية وتعصبه لآبائه وأجداده بقوله : « دينك ودين آبائك » . . . وفى الإنسان ميل إلى تمجيد آبائه والمبالغة فيما كان لهم من روعة الشأن وسلامة التقدير . . . وهو ميل من شأنه أن يثير فى صاحبه كثيرا من الضباب والهوى يقوى به سلطان المتابعة وإيحاء التقليد .

٤ — ويقرر الحديث فضل الإرادة فى تزكية الغريزة وإعلاء أهدافها بقوله عليه السلام : « فعصاه فأسلم » .. فإن العصيان حركة مضادة واتجاه يرمى إلى المقاومة والمنابذة ، ولابد فى ذلك من الإرادة . .

ولا شك أن هناك مرحلتين سبقتا مرحلة العصيان والمقاومة : مرحلة توقف فيها المرء عن متابعة الماضى وتخلص من دفع الزمن ، وضبط فيها هواه وسيطر على زمام نفسه . . ولا سبيل إلى ذلك — طبعا — إلا إذا كانت له إرادة حازمة جادة . . . وفى تلك اللحظة التى تخلص فيها من كل مؤثر دخيل على العقل كان يقف فى صحوة صوابه الروحى يتأمل فى القيم المختلفة ، ويفاضل بين ما يلقى إليه الإسلام ، وبين ما يلقى إليه الماضى من تراث الآباء — وتلك هى المرحلة الثانية — . . . حتى إذا اقتنع عقد العزيمة على ما هو أرشد : « فعصاه فأسلم » .

وقوله : « فعصاه فأسلم » . يبين لك ضعف هذا العدو ، وسهولة تبدد كيده إذا أنت لقيته بإرادة مجتمعة ، ووعى متنبه حصيف .

شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

١ — التقيت بعالم من أكبر العلماء قدراً ، وأنبههم ذكراً ، فذكر لي أنه كان في مجلسه رجل يُحتسب من رجال القانون ، ويُعد من كبارهم عند الكثيرين منهم ؛ أو على الأقل يظنونه كذلك ؛ وقال لي العالم الفاضل إنه سمع ذلك القانوني يتنقصني لأني أعتقد أن الشريعة الإسلامية خير الشرائع في القديم والجديد ، وأصلحها لمعالجة أدواء المجتمع في الماضي والحاضر ؛ وأنها شريعة السماء لا تَشْهَد لمثلها شرائع أهل الأرض ، وأني في ذلك أتشدد ، وأني أوازن وأقارب وأسدد ، أو أحاول ذلك ؛ فعجبت من أن قانونيا يتنقص رجلا من المنصرفين للعلم ؛ لأنه رأى أن شريعة من الشرائع هي خيرها ؛ وأن قانونا خير من قانون . فهل يُتنقص قانوني إذا قال إن القانون الألماني خير من الفرنسي ، أو قانون الاتحاد السويسري خير من المشروع اللاتيني ؟ ! ! إنهم بلا ريب لا يتنقصون قائل ذلك القول ؛ لأن الرجل لا ينتقص لمذهبه ، والعالم لا يُجهَّل لرأيه ؛ هذا إذا كانت الموازنة بين رأي ورأي ، أو مذهب ومذهب أو قانون وقانون ؛ فكيف إذا كانت الموازنة بين شرع منزل من السماء ، وقانون من غرس أهل الأرض ، أفيلام مسلم لأنه يرى أن شريعة القرآن خير من كل الشرائع ؟ ! ! إن ذلك لغريب عجيب وإنه ليكون أشد غرابة إذا كان اللائم من الذين يعدون في المسلمين ؛ بل إن الأمر ليعلو عن الغرابة إذا تبين أنه كان في مجلس ذلك العالم قانوني فرنسي ؛ وقد قرر أنه يرى أن الشريعة الإسلامية في دقة علاجها ، وحسن تفريعها ، وارتباط الأقيسة التي استنبطها فقهاؤها أدق الشرائع بإطلاق .

٢ — هذا قول المسيحي الغربي وذلك قول المسلم الشرقي في شريعة دينه ، وفي قوانين قرآنه ؛ ولكن البلاء كان قد عم ، وسَيْله كان قد طم ، وكان مصدره بعض أولئك الذين يظنون أن ما عند الغرب هو كل شيء ، وما عند الشرقيين ليس بشيء . لقد شاه تفكير بعضهم ولم يكتفوا بتركهم لشريعتهم ، وعشقهم للقوانين الأوروبية ، بل لقد استهوتهم فحسبوا فيها الكمال المطلق ، وفيما عندنا النقص المطلق ؛ وإن نظروا لما عندنا وأرادوا أن يعطوه بعض التقدير قاسوا ذلك بمقدار قربه مما عند الأوروبيين ،

ولمح ذلك فيهم بعض العلماء من المسلمين ، فأخذوا يبينون لهم قرب الشريعة مما عندهم ، وبحثوا عن غرائب الفتيا ليثبتوا عظيم اطلاعهم بالإتيان بما يوافق الأفكار الأوروبية سواء أكانت هذه الأفكار صالحة أم كانت طالحة أمام العقل المستقيم ؛ ونال أولئك العلماء حسن التقدير من بعض مقلدى الأوروبيين ، أما من حاول أن يبين الشريعة غير متزيد فى القول ، ولا محمِّل للألفاظ ما لا تحتمل ، ومقدراً الحقائق العلمية بمقدار نفعها ؛ فأولئك جامدون فى نظر هذا البعض ، لا يسايرون الزمان ، ولا يسيرون مع الركبان ، وأنهم وراء القافلة لا أمامها ، وأنهم حجة على الإسلام ، وأنهم يجعلون شريعته قانوناً بائداً ، ولا يجعلونها قانوناً خالداً .

ولقد اخترت — مستعينا بالله ، طالباً رضاه — أن أعرض الشريعة كما هى من غير أن أحرف القول عن مواضعه ، ومن غير أن أتحرى إرضاء أحد من العباد ، ولا أن أنال تقدير أحد بغير الحق ، إنى أبتغى رضا الله ، فلا يهمنى رضا الناس ، وسواء على أرميت بالجمود أم حظيت بالتقدير . وإذا رميت بالجمود ؛ لأنى أبين شريعة محمد كما جاءت ، وكما نزلت من غير تحريف ولا تصحيف ، فإنى راض مطمئن إلى هذا اللقب ممن آفت المدنية الغربية تفكيرهم ولم يزنوا الأمور بميزان الحق ، ولم يقدروه بالقسطاس المستقيم . وإن رضوا عن قولى مع قيام تلك الآوة بنفوسهم فإنى حينئذ أراجع ما أقول وأتشكك فيه ؛ لأعرف أدفع إليه الفكر المستقيم أم جمح به الهوى عن الشرع القويم ؟ . ونحمد الله على أن أولئك ليسوا كثيرين الآن ، وهم فى طريق الهداية . والبقاء للأصلح دائما . وإن كثرة إخواننا من علماء القانون نسعد بتشجيعهم ، وبعض الأكابر منهم لهم علينا فوق التشجيع بعض التوجيه .

٣ — ولكن دفعنا إلى هذا القول لوم الذين يغتابوننا لدفاعنا عن شريعتنا ، ويأخذون علينا أننا اعتبرناها بذاتها من أدلة إعجاز القرآن ، وبراهين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أقول قولى هذا وأطلب من الله لهم الهداية وأستغفر الله لى ولهم ، وعفا الله عنهم . وأعود إلى تتميم ما بدأت ؛ فقد بينت ما فى الشريعة من أحكام فى تعدد الزوجات وفى الطلاق ، وفى العتق والرق ؛ والآن نبين أحكامها فى الإرث ؛ وأنها أتت بنظام فى الميراث لم تُسبق بمثله ، ولم يصل إليه من بعد لاحق ؛ ولا يزال إلى اليوم أدق الموازين فى توزيع التركات ، وأحكمها فى تحقيق العدالة بين الوارثين ، ولقد شهد بذلك الذين اطلعوا على نظام التوريث فى الإسلام من الأوربيين ، وما شهدوا إلا بما

علموا ، ولعل الذين يقدرون العلم الغربى ولا يعرفون علما فى الشرائع سواه قد قدروا شريعتهم فى الميراث لهذه الشهادة التى سبقوهم بها .

٤ — وإن أول ما يلاحظه الدارس لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه جعل نظام التوريث إجباريا فى الثلثين وجعله اختياريا فى الثلث ؛ فجعل للمورث الحق فى الثلث يتصرف فيه بعد الموت بالوصية لمن يشاء . والأكثرون على أن ذلك الثلث إن أراد الوصية فيه لا تكون لوارث ، حتى لا يغير قسمة الله التى قسمها ؛ وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله فرض الفرائض ، وأعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » ولأن إعطاء بعض الورثة بالوصية دون الآخر تغيير لقسمة الله فى المواريث والفرائض فبدل أن يكون للبنت النصف يكون لها النصف والثلث . ولقد قرر ذلك النظر جعفر الصادق رضى الله عنه .

أما الثلثان فالميراث فيهما إجبارى بحكم الشارع ليس للمورث أن يوصى منهما بشىء ، ويدخل فى ملك الوارث جبرا عنه من غير أن يكون له اختيار ؛ لأنه حكم الشارع وأمره يسرى على الوارث والمورث على سواء . والحكم كذلك فى كل المال إن لم تكن وصية يكون الملك إجباريا بالنسبة للوارث ، ولقد قرر الفقهاء أنه لا شىء يدخل فى ملك الشخص جبرا عنه إلا الميراث .

٥ — ولقد جعل الشارع الوراثة الإجبارية فى الأسرة لا تعدوها ، أراد المورث ذلك أم لم يرده ، لأن ذلك من عمل الشارع الحكيم ؛ لأنه أراد أن يصل العلاقات فى الأسرة بالمودة العاطفة ، وبالمال يساعد بعضها بعضا به فى الحياة ، ويخلف القريب قريبه فيه بعد الوفاة ، وقد أمر الشارع القريب الغنى بالإنفاق على قريبه الفقير ، نشرا للمودة فى القربى ، وجعل الميراث بعد الوفاة ليكون التعاون فى جمع المال كاملا ؛ كما تكون المودة كاملة ، وجعل نفقة الأقارب والميراث يسيران فى خط واحد ؛ لأنهما ينبعان من أصل واحد ، فمن كانت تجب عليه نفقته إذا احتاج هو الذى يرثه لو مات غنيا ؛ لأن الغرم بالغنم ، والحقوق والواجبات متقابلة .

وإن ذلك من قبيل محافظة الشارع الإسلامى على الأسرة ؛ لأنها وحدة البناء الاجتماعى ؛ وإنه فى الوقت الذى تنحل فيه الروابط فى الأسرة يبتدىء الانحلال فى المجتمع ؛ وإن الذين يغيرون على المبادىء الاجتماعية السليمة يجعلون الأسرة هدفهم ، يحلونها ليحلوا عرا المجتمع عروة عروة .

٦ — وإن جعل الشارع الإسلامى الوراثة فى الأسرة مجتمعة على أن يكون بعضها

أولى من بعض نظر متوسط بين نظر الاشتراكيين الذين يمحون التوارث محواً تاما ، ولا يعتبرون للشخص إلا ما كان من كسبه بيده ، وبين نظر الإقراريين الذين يجعلون للمالك سلطانا فى ماله بعد وفاته يتصرف فيه كما يشاء كما كان له سلطان فى حياته ، وفى كلتا النظريتين إطراح للأسرة ، أو نظرة لها من أضيق آفاقها ؛ كما هو الشأن فى الشرائع التى جعلت الميراث الإجبارى فى الفروع وحدهم ، وبقدر ليس بكثير . لقد جاء الشارع الإسلامى ، وسلب من المورث الإرادة فى الثلثين ، وترك له الثلث يتصرف فيه بالمعروف كما شاء ؛ وما سلب منه الإرادة فى الثلثين إلا ليحمى الأسرة ، وليعطيها ماله بالقسطاس المستقيم ، ولكيلا يكون فى الأسرة جفوة بسبب المنع والإعطاء إن ترك ذلك للمورث .

٧ — وإن التوزيع الذى تولاه الله فى كتابه العزيز يقوم على دعائم ثلاث :

أولاها : أنه يعطى التركة للأقرب الذى تعتبر حياته امتداداً لشخص المتوفى من غير تفرقة بين كبير وصغير ، ولذلك كان أكثر الأسرة حظا فى الميراث الأولاد ، ومع ذلك لا ينفردون بالميراث ، بل يشاركهم فيه غيرهم ، ولكن لا يكون مجموع ما يستحقون أقل من النصف .

وإن مشاركة غيرهم بنحو النصف هو لمنع تجميع المال فى جانب ، فالأبوان يأخذان الثلث ثم يكون من بعدهما لأولادهما ، وهم إخوة المتوفى الذين يئول إليهم نصيب الأبوين فيكون الاشتراك فى المال بدل الانفراد . وإن لم يكن أبوان فقد يأخذ الإخوة مع الأولاد ، كالحال إذا كان فرع أنثى ، فمع أن الميراث يكون للأقرب لم يكن الإعطاء على سبيل الاستئثار ، بل على سبيل الاشتراك .

٨ — وثانيتها : الحاجة ، فيكثر القدر فى الميراث كلما كانت الحاجة أشد ، ولعل ذلك هو السر فى أن نصيب الأولاد أكثر من نصيب الأبوين مع أنهم فى درجة واحدة من القرابة ، بل إن الأبوين لهما نوع ملك فى مال ولدهما ؛ لقوله عليه السلام : « أنت ومالك لأبيك » . ولكن حاجة الأولاد إلى المال أشد لأنهم فى غالب الأحوال ذرية ضعاف ، خصوصا إذا كان الأبوان على قيد الحياة . وهم يستقبلون الحياة والأبوان يستدبرانها ، ولهما فى الغالب فضل مال ، فحاجتهما إلى المال ليست كحاجة الذرية الضعاف ، وما يرثه الأبوان يكون لأولادهما ، وهم فى الغالب كبار ، وسيرثون الأب فى الطريف والتالد من المال ، بينما الذرية لا ترث شيئاً .

وإن ملاحظة الحاجة هو السبب فى أنه كان ميراث الذكر ضعف ميراث الأنثى ،

لأن التكليفات المالية على الزوج دائماً ، وليس على المرأة تكليفات مالية كتكليفات الرجل ؛ لأن الفطرة التى أقرتها الشريعة تجعل المرأة قوامة على البيت والرجل عاملا كادحا فى الحياة ، وهذا بلا شك يجعل حاجة المرأة إلى المال دون حاجة الرجل ، ولا شك أن التفاوت لتفاوت الحاجة عدل ؛ والمساواة عند تفاوتها ظلم ، وهى من المساواة الظالمة لا العادلة .

٩ — ثالثها : أن الشريعة الغراء بنص القرآن الكريم وصحيح الحديث تتجه بالميراث إلى التوزيع دون التجميع كما أشرنا ؛ فالقرآن لم يجعل الميراث فى وارث واحد يستبد به دون الباقين ، فلم يجعلها للولد البكر ، ولم يجعلها للأبناء دون الآباء ، بل وزع التركة بين عدد من الورثة ، والصور التى يستبد فيها وارث بالتركة نادرة جداً ، وهى تكون حيث يقل الأقارب ، وما كان نظام التوريث ليخلق القرابة ، بل يوزعها بالعدالة والقسطاس بين القرابة فيوزع بمقدار قربها وقوتها .



ولذا نرى الأولاد جميعاً يشتركون فى الميراث بحكم القرآن ، وقد يشاركهم أولاد الأولاد ، وإن كان آباء فإنهم يشاركونهم لا محالة ، وكل ذلك فيه توزيع لا تجميع .

١٠ — وإذا انتقل الميراث من عمود النسب إلى الحواشى يوزع بينهم من غير أن تستبد قرابة دون قرابة ، فإذا كان إخوة أشقاء ولأب ولأم ؛ وزع بينهم الميراث فأولاد الأم يأخذون عند وجود الأشقاء مع تعارف الناس جميعاً على أن الأشقاء أقوى قرابة ، وأوثق اتصالا ، وأقرب رحما وفيهم النصراء والأعوان ، ولكن قرر القرآن ذلك لكيلا تتحيز التركة فى جانب واحد ؛ وفوق ذلك يكون فى ذلك إعلان لنصرة الأمومة ، وقوة علاقتها ، وأنها تربط بين أولادها كما يربط الأب ؛ فيشعر الإخوة الذين تربطهم الأم بأنهم فى قوة القرابة بدرجة تقرب من قوة الأب ؛ وإن هذا قد يؤدى إلى ألا ينفر الأولاد من زواج أمهاتهم ، ولا يعضلوهن لتوهم عار أو نحوه ؛ لأنهم يعلمون أنهم بهذا الزواج يصلون قرابات بقرابتهم ، ويزيدون الأنصار والأولياء .

وإنهم يرثون بمقتضى أحكام القرآن مع وجود الأم ، فيكون للأم وأولادها من غير أبى المتوفى بذلك قدر موفور من التركة يصل إلى نصفها أحيانا ؛ وما يئول للأم يئول إليهم بعضه ؛ فيكون لهم هم قدر كبير .

١١ — ومما بنى على هذا المنهاج الذى سلكه القرآن هو توزيع التركة بين الأقربين دون تجميعها ما استنبطه الفقهاء من أحكام القرآن ؛ من أن من اتصل بالميت عن طريق وارث لا يرث مع وجود من اتصل به ، إذ لو كان كلاهما يرث فيرث

الابن وابنه ، أو الأب والجد ؛ لكان ذلك جمعاً للتركة فى حيز واحد ؛ أو على الأول يكون جمعاً لشطر كبير منها فى ذلك الجانب ، والقرآن وزع التركة وعمم فى التوزيع للقرابة القريبة ثم التى تليها ، ثم البعيدة ، تقوية لدعائم الأسرة ، ووصلا لحبل المودة ، وتقريباً للبعيد .

١٢ — ولقد أخر الإسلام ذوى الأرحام فى الميراث ، وهم الذين تتصل قراباتهم بالميت عن طريق النساء فيما عدا الإخوة لأم ؛ لأن هؤلاء ينتمون إلى أسر أخرى غير أسرة المتوفى ، ولهم غالباً ثروات آلت أوتئول إليهم من طريق تلك الأسر ؛ فكان المعقول ألا يزاحموا الذين ليست لهم أسرة أخرى ينالون الميراث عن طريقها ، فبنت البنت لا تزاحم بنت الابن ؛ لأن هذه ليست لها أسرة تنال منها ميراثا غير أسرة أبيها أما ابنة البنت ، فأسرة أبيها قد يكون فيها فضل مال يغنيها .

إن قسمة المواريث تولاها القرآن بنصوصه الصريحة فى الأرقام ، فهى قسمة الله العادلة وتوزيعه الحكيم ؛ ولم يعرف البشر توزيعاً قريباً منه فى عدله ، وقد تولى سبحانه بيانها لكيلا يضل الناس ، فإن تركوها بعد البيان فعن بينة تركوها ، وقد قال سبحانه بعد بيان المواريث : « يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شىء عليم » .

في ظلال القرآن

للأستاذ سيد قطب

(٣)

« إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا . بعوضةً فما فوقها . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِم ، وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا فيقولون : مَاذَا أَرادَ اللهُ بِهٰذَا مَثَلاً ! يُضِلُّ به كَثِيرًا ، وَيَهْدِي به كَثِيرًا . وَما يُضِلُّ به إِلاَّ الفَاسِقِين : الَّذِين يَنقُضُون عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعدِ ميثاقه ، وَيَقْطَعُونَ ما أَمرَ اللهُ به أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفسِدونَ فِي الْأَرضِ أُولٰئِكَ هم الخاسرُون .

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ ، وكنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ، ثُم يُمِيتُكُمْ ، ثُم يُحْيِيكُمْ ، ثُم إِلَيهِ تُرْجَعُون ؟ هوَ الَّذِي خَلقَ لَكم مَا فى الأَرضِ جميعا ، ثُمَّ اسْتوَى إِلَى السَّماءِ فَسوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ ، وَهُوَ بكلِّ شيءٍ عَلِيم .

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلاَئِكَةِ : إِنِّى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَة . قَالوا : أَتجْعلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاء ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بحمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قالَ : إِنِّى أَعْلَمُ مالا تَعْلَمُون . وَعلَّمَ آدمَ الأَسْمَاءَ كلَّهَا ثُمَّ عرَضَهُم عَلَى المَلاَئِكَةِ فقَالَ : أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤلاءِ إِنْ كنتم صادقين . قالوا : سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لنا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا . إِنَّكَ أَنْتَ العليمُ الحكيمُ . قَالَ : يا آدمُ أَنبِئْهم بأسمائِهم . فَلَمَّا أَنبأَهم بأسمائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لكم : إِنِّى أعلمُ غيبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرضِ ، وَأَعلمُ ما تُبْدُون وما كنتم تكْتُمُون ؟

« وَإِذْ قُلْنَا لِلمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدمَ ، فسجدوا ، إِلاَّ إِبليسَ أَبَى وَاستكْبرَ وَكانَ مِنَ الكافِرِين . .

« وَقلنا : يا آدمُ أُسكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنةَ ،وَكُلا منها رَغَدًا حيثُ شِئْتُما ، وَلاَ تقْرَبا هٰذه الشجرَةَ فتكُونا مِنَ الظَّالِمين . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطانُ عنْهَا فأخرَجَهُمَا مِمَّا كانا فيه . وقُلنَا اهبطوا : بَعْضُكم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلكُم فى الأرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ ربِّهِ كلماتٍ فتابَ عَلَيْهِ . إنه هو التَّوَّاب الرَّحِيم .

« قلنا : أهْبِطُوا مِنْها جميعاً ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى ، فمن تَبِعَ هُدَاىَ فلاَ خَوفٌ عليهم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون ، وَالذِين كَفرُوا وَكَذَّبوا بِآيَاتِنَا أُولئِكَ أَصحابُ النارِ هُمْ فيهَا خَالِدُون . . »

* * *

مضى السياق بمثلين ضربهما الله للمنافقين ، الذين يرون الهدى فلا ينتفعون به ، ويطلبون النور ثم يجانبونه . . « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ... » . « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين . . »

ولعل قوما ممن عاصروا نزول تلك الآيات قد حاك فى نفوسهم شىء من أن يضرب الله الأمثال ؛ لأنها مجاز لا حقيقة ، وفرض لا واقع . ولعل أقواما ممن يستمعون إلى القرآن ، أو يقرأونه فى أى زمان يحيك فى نفوسهم شىء كذلك ، يرون أن هذا الأسلوب إنما يليق بشاعر يرمى إلى الرؤى والأخيلة أكثر مما يرمى إلى الواقع والحقيقة !

فهنا تصحيح لذلك الوهم ، وبيان لحكمة الله فى ضرب الأمثال : إنها اختبار لمعادن العقول والقلوب ، يختلف وقعه ، وتختلف الاستجابة إليه باختلاف النماذج الإنسانية التى تتلقاه .

وهكذا يرتد السياق إلى نموذجين وردا من قبل فى نموذج المؤمنين المتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ؛ لأنهم يثقون بالله وبما يأتيهم من عند الله ، ولأن بصائرهم مفتوحة للنور مستعدة للهدى . . ونموذج الكافرين ، الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم لا يستجيبون للنور والهدى ، وهم لا يفقهون بينة ولا مثلا .

« إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما : بعوضة فما فوقها » فالله رب الصغير والكبير ، وخالق البعوضة والفيل . وليست هذه الشكايات هى المقصودة فى الأمثال ، إنما هى أدوات للتنوير والتصوير ، وليس فى ضرب المثل معيب يُستحى منه فيمتنع عنه . فهو أسلوب من أساليب البيان والإيضاح ، ربما كان أدخل إلى النفوس وأحب إلى القلوب . فضلا على أن الله — جلت حكمته — يريد بالمثل اختبارا وامتحانا للقلوب : « فأما الذين آمنوا » — بما فطرت عليه طبيعتهم من تفتح واستشراف للهدى ، وثقة فى الخالق الأعلى — « فيعلمون أنه الحق من ربهم » . . « وأما الذين كفروا — بما فى قلوبهم من استغلاق ، وبما فى بصائرهم من عتامة — فلا يفقهون له معنى ، ولا يستشعرون له وقعاً « فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ » . . ماذا أراد الله به ؟ « يُضِلُّ به كثيراً » ممن انحرفت فطرتهم وفسدت ، وتقطعت روابطهم بالقوة الكبرى المشرفة على الكون ، والتى تتصل بها القلوب حين تصفو وتتفتح وتستشرف « ويهدى به كثيرا » ممن عمرت الثقة بالله قلوبهم ، فاتصلت بالنبع ووثقت بالله . « وما يضل به إلا الفاسقين » . .

وهنا يأخذ السياق فى رسم خصائص الفاسقين هؤلاء ، الذين يضلون بما يهتدى به المؤمنون .. إنهم أولئك « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض » .

فأى عهد من عهود الله هذا الذى ينقضون ؟ وأى أمر مما أمر الله به أن يوصل هو الذى يقطعون ؟ وأى لون من الفساد فى الأرض هو الذى يوقعون ؟.. لقد جاء السياق بهذا الإجمال هنا ؛ لأن المجال مجال تشخيص طبيعة ، وتصوير نموذج ، لا مجال تسجيل حادثة ، ولا تفصيل واقعة .. إن الصورة هنا هى المطلوبة فى عمومها ؛ فكل عهد بين الله وبين هذا النموذج من الخلق منقوض ، وكل ما أمر الله به أن يوصل بينهم مقطوع ، وكل فساد فى الأرض منهم مصنوع . . إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة ، وثقتهم فى أساسها بالله ممنوعة . وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهد ، ولا تستمسك بعروة ، ولا تتورع عن فساد .. وفى القرآن — فى مواضيع أخرى — أمثلة جزئية كثيرة على نقض عهد بعينه ، وعلى قطع ما أمر الله به أن يوصل ، وعلى الفساد فى الأرض ، تأتى هنالك مفصلة لأن السياق هنالك يقتضى هذا التفصيل . أما هنا فالإجمال الكلى هو الذى يتسق مع الجو العام . فلا نحاول إذن ونحن فى ظلال هذا الجو أن نفصِّل ما أراد الله له الإجمال !

ولكننا ننظر فى الآثار الهدامة لهذا النمط من البشر ، فى مقابل الآثار البناءة لذلك النمط الذى افتتحت به السورة .

هنالك : المتقون «الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون »

وهنا : الفاسقون «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض »

أولئك هم المتصلون بالله ، العابدون له الموثقة روابطهم به . المتصلون بالناس المصلحون للمجتمع ، الواصلون للرحم الإنسانية . المستمسكون بهدى الله لا يفرقون بين رسله ودينه . الموقنون بالآخرة وبالعدل والجزاء .

وهؤلاء هم الفاسقون المنحرفون عن السواء ، الذين ينقضون عهد الله فلا تربطهم به صلة ، ويقطعون كل عروة رابطة ، ويوقعون فى الأرض الفساد .

وإذا نُقض عهد الله من بعد ميثاقه فكل عهد دون عهد الله منقوض ، وإذا قُطع ما أمر الله به أن يوصل فقد تفككت الروابط وانحلت العرى ، وتمزقت الصلات ، وإذا وقع الفساد فى الأرض فقد فسدت الحياة وشملتها الفوضى . فأى هدم وأى تشويه وأى فساد هذا الذى يخلفه فى الحياة أولئك الفاسقون ، بانحرافهم عن الإيمان والثقة بالله ؟!

ثم يعقب السياق بالاستنكار للفسوق والكفر . فى إجمال كذلك سريع جامع شامل يناسب الجو كله ، ويتسق مع ظلاله :

« كيف تكفرون بالله ؟ وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون » .

هكذا فى آية واحدة قصيرة ، يفتح سجل الحياة كلها ويطوى ، وتعرض كالبرق صورة البشرية فى قبضة البارىء : ينشرها من همود الموت أول مرة ، ثم يقبضها بيد الموت فى الأولى ، ثم يحييها كرة أخرى ؛ وإليه رجعتها فى الآخرة ، كما كانت له نشأتها فى الأولى . .

كيف تكفرون بالله ، وها أنتم أولاء فى قبضته ، وفى قدرته ، وفى مشيئته . من المبدأ إلى المصير . من قبل أن تروا النور ، وعندما تواريكم القبور ، ومن بعد البعث والنشور ؟ كيف تكفرون بالله ، وصلتكم به قائمة ، وإليه المبدأ والمصير ؟

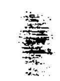
إن السياق هنا يستعرض موكب الحياة كله فى ومضة ، يرتسم فيها ظل القدرة . . ويعقب عليها بومضة أخرى لنفس الغرض وفى نفس الاتجاه . . وكلتاهما مكملة للأخرى :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن سبع سموات » . . هكذا فى آية كذلك قصيرة ، يبرز إلى الوجود عالم الأرض كلها بما فيها ، وعالم السموات السبع جميعاً . . إنها القدرة التى يستنكر العقل والضمير كفرها وجحودها ، والفسوق عن هديها وعهودها .

ويكثر المفسرون هنا من الكلام عن خلق الأرض والسماء . يتحدثون عن القبلية والبعدية . ويتحدثون عن الاستواء والتسوية . . . وينسون أن « قبل وبعد » اصطلاحان بشريان لا مدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى . وينسون أن الاستواء والتسوية اصطلاحان لغويان ، يقربان إلى التصور البشرى المحدود صورة غير المحدود . . ولا زيدان . .

ثم يورد السياق قصة آدم . .

والقصص فى القرآن يرد فى مواضع ومناسبات .. وهذه المناسبات التى يساق من أجلها تحدد مساق القصة ، والحلقة التى تعرض منها فى كل مناسبة ، والصورة التى تأتى بها ، وطريقة أدائها كذلك . لأن كل صورة تأتى مناسبة للسياق الذى تذكر فيه ؛ تحقيقا للجو الروحى والفكرى والفنى الذى تعرض فيه .. ويحسب أناس أن هنالك تكراراً فى قصص القرآن ؛ لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها فى مواضع شتى . ولكن النظرة العميقة تقول : إنه ما من قصة أو حلقة من قصة قد كررت فى صورة واحدة من ناحية القدر والأداء . وأنها حيثما تكررت كان هنالك جديد تؤديه فى السياق . . ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقا للحوادث أو تصرفا فيها ، يقصد به مجرد الفن: بمعنى التزويق الذى لايتقيد بواقع ! ولكن الحق الذى يلمسه كل من ينظر فى هذا القرآن ، وهو مستقيم الفطرة مفتوح البصيرة أن السياق هو الذى يحدد القدر الذى يعرض من القصة فى كل موضع ، كما يحدد طريقة العرض وخصائص الأداء .. والقرآن كتاب دعوة ودستور نظام ، لا كتاب تاريخ ولا قصة .. وفى سياق الدعوة يجىء قصصه المختار ، بالقدر وبالطريقة التى تناسب الجو والسياق ، وتحقق الجمال الفنى الصادق ، الذى لا يعتمد على الخلق والتزويق ، ولكن يعتمد على إبداع العرض وإعجاز الأداء [1] .



فلننظر فى قصة آدم كما جاءت هنا ، فى ظل ذلك السياق الذى أسلفنا . .

إن السياق هنا يستعرض موكب الحياة . بل موكب الخلق كله . ثم يتحدث عن

(١) راجع بتوسع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن »

الأرض ويقرر أن الله خلق كل ما فيها للانسان : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » فنى هذا السياق تجىء قصة آدم مجملة — بالقياس إلى تفصيلاتها فى مواضع أخرى — ويجىء فيها النص على أن آدم خلق لغاية معلومة . هى استخلافه فى هذه الأرض ، وإعطاؤه مقاليدها : « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة »

والسياق هنا يستعرض نموذجين من الطبائع البشرية : المؤمنين : الذين تطمئن قلوبهم لله ، فإذا سمعوا ما يضرب من أمثال علموا أنه الحق من ربهم بلا مِحال ولا جدال.. والفاسقين : الذين انحرفت فطرتهم وضلت فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ، ولا يدركون حكمته ، ولا يستجيبون له .. فنى هذا السياق تُستعرض حكمة الله فى استخلاف آدم فى الأرض . هذه الحكمة التى تستقبلها نفوس الملائكة الصافية المؤمنة بالرضى والتسليم . وتستقبلها نفس إبليس المنحرفة الضالة بالاستكبار والمعصية : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا ، إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

وفى معرض الإيمان والكفر فى هذا السياق ، تنتهى القصة كذلك بانتهاء البشرية كلها إلى طريقين : طريق الهدى وطريق الكفر : « قلنا : اهبطوا منها جميعا ، فإما يأتينكم منى هدى . فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

ذلك مجمل الخطوط فى معرض القصة هنا . وهى تتناسق مع معرض السياق الذى وردت فيه . وتختلف عنها فى معارض القصة ذاتها فى مناسبات أخرى ؛ لاختلاف الجو والسياق هنالك . والحكمة التهذيبية التى تساق من أجلها فى تلك المناسبات .

فلنعش لحظات فى ظلال قصة البشرية الأولى :

ها نحن أولاء بعين الخيال ، وفى ومضات الاستشراف . . فى ساحة الملأ الأعلى . . وها نحن أولاء نشهد نشأة البشرية الأولى . .

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة . . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون » . . .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » . . .

من هم الملائكة ؟ من هو إبليس ؟ كيف قال لهم الله ؟ كيف أجابوه ؟ أين كان هذا

الحوار ومتى كان ؟ ما الأسماء التى علمها الله لآدم ؟ من الذين عرضهم الله على الملائكة فلم يعرفوا أسماءهم ؟

هذه وأمثالها فى القرآن الكريم مما لم يرد فيه تحديد ولا تفصيل . . كله غيب من الغيب الذى أسلفنا أن العقل البشرى عنه محجوب ؛ وأن فى الإيمان به صيانة للطاقة الفكرية من أن تتبدد فى غير مجالها ، ومن أن تنفق عبثاً بلا جدوى . . ومتى آمن العقل بالبديهية الأولى : بديهية أن الجزء لا يمكن أن يدرك الكل ، وأن الذى خلق أعلم بما خلق ممن خلق .. متى آمن العقل بالقدرة المطلقة وبالعلم المطلق .. فأولى به إذن أن يدع هذا الغيب الذى لا يملك وسيلة لإدراكه . . أن يدعه لعالم الغيب والشهادة . لا استسلاماً جاهلا أعمى ، ولكن تسليما بالبديهية العقلية الأولى . .

وإذا كان العقل لا يدرك هذا الغيب ولا يجد إلى الاطلاع عليه سبيلا . فليس معنى عجزه أن يتبجح وينكر . فالإنكار حكم يحتاج إلى برهان . واحترام العقل ذاته يقتضيه ألا ينكر ، إلا وقد أحاط علماً بما ينكره ، واستيقن من عدم وجوده .

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر والخطورة . ولكن أخطر منه وأضر التنكر للمجهول كله وإنكاره ؛ لأنه تنكر لتلك البديهية الأولى ، وإنكار لطبيعة العقل وحدوده ، وإقحام لهذا العقل فى غير مجاله ، وتبديد لطاقته فى غير ميدانها ، وتطاول منه على حكم لا يملك أسانيده .

فلنأخذ إذن من القصة ما تشير إليه من حقائق كونية وإنسانية ، ومن مبادئ وعظات ومثل ، ومن توجيهات فى العقيدة والسلوك .. فذلك كله أنفع وأجدى ..

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة » .. وإذن فهى الإرادة الكبرى تسلم لهذا الكائن البشرى زمام هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق الأعلى فى الإبداع والتكوين ، والتنويع والتركيب .. وإذن فقد وهب هذا الكائن البشرى من الطاقة الكامنة ما يناسب هذه المهمة الضخمة ، ومن الإمكانيات الخفية ما يحقق هذه المشيئة العظيمة .. وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس السارية فى هذا الكون والنواميس التى تسير عليها الطاقة الكامنة فى ذلك المخلوق ؛ كى لا يقع التصادم بين هذه النواميس .. وإذن فهى منزلة عظيمة منزلة هذا المخلوق فى نظام الكون كله . وهو التكريم الذى يتحدث عنه خالقه العظيم : « ولقد كرمنا بنى آدم » ، وما سجود الملائكة الذى أمرهم به ربهم :إلا إعلاناً لهذا التكريم ، الذى تقرر عندما شاءت الإرادة الكبرى أن تستخلفه فى هذا الملك العريض ..

« قالوا : أتجعل فيها من يفسدفيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »
وإذن فقد كان لديهم من شواهد الحال ، أو من العلم السابق ، أو من إلهام البصيرة ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته فى الأرض ؛ وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون ، أنه سيفسد فى الأرض وأنه سيسفك الدماء .. وإذن فهم بفطرة الملائكة التى لا تتصور إلا الخير المطلق وإلا السلام الشامل يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له هو وحده الغاية المطلقة للخلق ، وهو الخليق بأن يتحقق وجوده . وهو متحقق بوجودهم هم يسبحون الله ويقدسونه .

لقد خفيت عليهم أهداف الإرادة المطلقة الكبرى فى بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفى نمو الحياة وتفريعها وتنويعها ، وفى إبراز مشيئة الخالق الأعلى فى الإبداع والتكوين والتركيب ، على يد خليفة الله فى أرضه . هذا الذى قد يفسد أحياناً وقد يسفك الدماء أحياناً ، ليتم من وراء هذا الشر الجزئى الظاهر خير أكبر وأشمل . خير النمو الدائم ، والترقى الدائم . خير الحركة الهادمة البانية . خير المحاولة التى لا تكف عن استكناه سر الناموس ، وعن التطلع إلى ما هو أعلى .. « قال : إنى أعلم مالا تعلمون » .

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئونى بأسماء هؤلاء. إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا . إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

ها نحن أولاء نشهد بعين الخيال وباستشراف البصيرة — ما شهده الملائكة فى الملأ الأعلى . نشهد طرفاً من ذلك السر الأعظم الذى أودعه الله خليفته : سر المعرفة . سر هذا المخلوق الذى يواجه به مجاهيل الطبيعة ومجاهيل الحياة ، السر الذى يفتح له المغاليق وينير له الطريق . إنه سر خلقه وسر خلافته ، وسر نموه وارتقائه . إنه سر تكريمه على الملائكة الذين يسبحون الله ويقدسونه ، ولا يفترون عن عبادة ربهم ولا يستكبرون .
« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » . إنه التكريم فى أعلى صوره لهذا المخلوق البشرى الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وهب ذلك السر الأعظم : سر القدرة على المحاولة والاستعلاء . إن ازدواج طبيعته ، والسر الإلهى الكامن فى كيانه . إن قدرته على أن يغلب دوافع التدمير والفساد ، وأن يُغلِّب عليها دوافع التعمير والصلاح . إن هذه الإرادة التى تجعله يختار طريقه . إن هذه الخصائص كلها هى سر هذا التكريم الإلهى العظيم .

« إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الـكافرين » . وهنا تتبدى خليقة الشر مجسمة : فى عصيان الخالق سبحانه ، والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله ، والعزة بالإثم والاستغلاق عن الفهم . . وهنا كذلك ينكشف ميدان المعركة الخالدة . بين خليقة الشر فى إبليس وخليفة الله فى الأرض . المعركة التى يتعاور الخصمان فيها النصر والهزيمة ، بمقـــدار ما يستمع ابن آدم إلى صوت الله ، أو يستجيب لنوازع الشر فينساه .

تبدأ المعركة فى الجنة التى أسكنها الله آدم وزوجه . . لقد أبيحت لهما كل ثمارها وكل متاعها . . إلا شجرة واحدة .. شجرة واحدة لا يقربانها .. شجرة لا يذكر القرآن اسمها ولا نوعها — إلا ما يرد فى موضع آخر على لسان إبليس ويشعر أنه لمجرد الإغراء والإغواء — شجرة واحدة ترمز إلى المحظور الذى لا بد منه فى حياة البشر . فبغير محظور ما لا تنبت الإرادة ولا تقوى ، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المنساق . فالإرادة هى مفرق الطريق ، والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمية ولو كانوا من جنس الإنسان : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » .

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .. الظالمين لأنفسهم بإيرادها موارد البوار . والظالمين لمعنى الإنسانية فى الإنسان ، وهو لا يتحقق إلا بالارتفاع على النوازع والشهوات .

« فأزلهما الشيطان عنها » . . ويا للتعبير المصور المعبر : « أزلهما » إنه لفظ يحمل صورة الحركة التى يعبر عنها . . وإنك لتكاد تلمحه يزحزحهما عن الجنة ، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى ! « فأخرجهما مما كانا فيه » من هذا النعيم المقيم ، الذى لم يصونا عهد الله فيه ، ولم ينتفعا بهبة الإرادة التى وهبها الله خليفته فى الأرض ، ليلوذ بها من الضعف والغواية .

عندئذ حقت كلمة الله وصرح قضاؤه : « اهبطوا : بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

ونهض آدم من عثرته ، بما ركب الله فى فطرته . وأدركته رحمة الله التى تدركه دائماً عندما يثوب إليها ويلوذ بها : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم » .

وتمت كلمة الله الأخيرة : « اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وانتقلت المعركة الخالدة إلى الأرض ، وانطلقت من عقالها ، ما تهدأ لحظة وما تضع أوزارها . .

وبعد . فلا بد من عودة إلى مطالع هذه القصة : قصة البشرية الأولى .

لقد قال الله تعالى لملائكته : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » . وإذن فآدم خلق للأرض منذ اللحظة الأولى . ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض فى النهاية ، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟

لقد كانت هذه التجربة تربية لهذا الخليفة وإعداداً . كانت إيقاظا للقوى المذخورة فى آدم . كانت تدريباً له على تلقى الغواية ، ومذاق العاقبة ، والتوفز للجولة الثانية . .

إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشر باللذة ، ونسيان العهد بالطاعة ، والصحوة بعد السكرة ، والالتجاء إلى رحمة الله فى النهاية . . إنها قصة البشرية المكرورة . .

لقد شاءت رحمة الله بهذا المخلوق . . أن يهبط إلى مقر خلافته مزوداً بهذه التجربة استعداداً للمعركة الحقيقية فى أرضها وموطنها . .

أفضل التفاسير

سألنى أحد الإخوان عن أفضل التفاسير ، وأقرب طرق الفهم لكتاب الله تبارك وتعالى ؟ فكان جوابى على سؤاله هذا هذه الكلمة : « قلبك » . فقلب المؤمن ولا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى . وأقرب طرائق الفهم أن يقرأ القارىء بتدبر وخشوع ، وأن يستلهم الله الرشد والسداد ، ويجمع شوارد فكره حين التلاوة ، وأن يلم مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة ، ويعنى بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة ؛ فسيجد فى ذلك أكبر العون على الفهم السليم . وإذا قرأ فى كتب التفسير بعد ذلك فللوقوف على معنى لفظ دق عليه ، أو تركيب خفى أمامه معناه ، أو استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله ؛ فهى مساعدات على الفهم . والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوءه فى صميم القلب .

حسن البنا

السُّنة ...

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى

(٥)

رحلة الصحابة إلى الأمصار طلباً للحديث

انقضى عصر الشيخين والسنة محفوظة فى صدور الصحابة غير شائعة الانتشار كثيراً، لا فى الأقطار ؛ لأن عمر رضى الله عنه منع أكثر الصحابة من مغادرة المدينة ، إلا لأفراد اقتضت المصلحة خروجهم ، ولا فى المدينة نفسها ؛ لأن سياسته كانت تقوم على توفير العناية بالقرآن ، وتقليل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعاً للتزيد فيه ، واحتراساً من الخطأ والوهم فى روايته .

فلما كان عهد عثمان سمح للصحابة أن يتفرقوا فى الأمصار ، واحتاج الناس إلى الصحابة وخاصة صغارهم ، بعد أن أخذ الكبار يتناقصون يوما بعد يوم ؛ فاجتهد صغار الصحابة بجمع الحديث من كبارهم ، فكانوا يأخذونه عنهم ، كما كان يرحل بعضهم إلى بعض من أجل طلب الحديث ؛ فقد أخرج البخارى وأحمد والطبرانى والبيهقى — واللفظ له — عن جابر بن عبد الله : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمعه منه ؛ فابتعت بعيراً ، فشددت عليه رحلى ، ثم سرت إليه شهراً ، حتى قدمت الشام فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصارى ، فأتيته فقلت له : حديث بلغنى عنك أنك سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم لم أسمعه ؛ خشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الناس عراة غرلا بُهْماً قلنا وما لهم، قال : ليس معهم شىء ، فيناديهم نداء يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ : أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقصها منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى أقصها منه حتى اللطمة ، قلنا كيف ؟ وإنما نأتى الله عراة غزلا بهما قال بالحسنات والسيئات [1] »

---

(١) مفتاح الجنة : ٢٧ ، وجامع بيان العلم ج ١ : ٩٣

وأخرج البيهقى وابن عبد البر عن عطاء بن أبى رباح أن أبا أيوب الأنصارى رحل إلى عقبة بن عامر ، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد سمعه منه غيره ، فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى — وهو أمير مصر — فخرج إليه فعانقه ، ثم قال له ما جاء بك يا أبا أيوب ، فقال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ستر المؤمن ، فقال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ستر مؤمناً فى الدنيا على كربته ستره الله يوم القيامة » ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعاً إلى المدينة ، فما أدركته جائزة مسلمة إلا بعريش مصر .

وبذلك ابتدأت رواية الحديث تأخذ فى السعة والانتشار ، وبدأت الأنظار تتجه بعناية شديدة ، أكثر من ذى قبل ، إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص التابعون على لقياهم ، ونقل ما فى صدورهم من علم ، قبل أن ينتقلوا إلى الرفيق الأعلى . ولقد كانت زيارة الصحابى لمدينة من المدن الإسلامية كافية بأن تجمع أهل المدينة كلها حوله ، ويشتد الزحام ساعة وصوله ، وتشير الأصابع أن هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد اشتهر عدد من الصحابة بكثرة رواية الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم : إما لقدم صحبتهم له كعبد الله بن مسعود ، أو لملازمتهم خدمته كأنس بن مالك ، أو لإحاطتهم بأحواله الداخلية كعائشة ، أو لعنايتهم بحديثه كعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن عمرو ، وأبى هريرة ، رغم صغر الأولـيْن ، وتأخر إسلام الثالث . والناس فى كل هذا يأخذون عن الصحابة ، لا يشكـون ولا يترددون ، والصحابة يأخذ بعضهم عن بعض لا يكذب بعضهم بعضاً ولا يتحرجون . ولم يكن قد دُسَّ على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو وجد الكذابون ؛ حتى وقعت الفتنة ، فكانت مبدأ تحول فى حياة المسلمين الدينية . كما كانت بدء تحول فى حياتهم السياسية .

الوضع فى الحديث ومتى بدأ ؟

كانت سنة أربعين من الهجرة هى الحدُّ الفاصل بين صفاء السُّنة ، وخلوصها من الكذب والوضع ، وبين التزيد فيها ، واتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية ، والانقسامات الداخلية ؛ بعد أن اتخذ الخلاف بين على ومعاوية شكلا حربيا سالت فيه دماء ، وأزهقت فيه أرواح ، وبعد أن انقسم المسلمون إلى طوائف متعددة ؛ فالجمهور مع على فى خلافه مع معاوية ، والخوارج ينقمون على علىّ ومعاوية معا ، بعد أن كانوا

من شيعة على المتحمسين ، وفريق من آل البيت أخذوا بعد قتل على رضى الله عنه ، وخلافة معاوية يطالبون بحقهم فى الخلافة ، ويشقون عصا الطاعة على الدولة الأموية . وهكذا كانت الأحداث السياسية سببا فى انقسام المسلمين إلى أحزاب وشيع . ومن المؤسف أن هذا الانقسام اتخذ شكلا دينيا ، كان له أبلغ الأثر فى قيام المذاهب الدينية فى الإسلام ؛ فلقد حاول كل حزب أن يؤيد موقفه بالقرآن والسنة ، وطبعى ألا يكونا مع كل حزب يؤيدانه فى كل ما يدعى ؛ فكان لابد للأحزاب من أن تتناول القرآن على غير حقيقته ، وأن تحمّل نصوص السنة مالا تتحمله ، وأن تضع على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث تؤيد بها دعواها ، بعد أن عزّ عليها مثل ذلك فى القرآن لحفظه ، وتوفر المسلمين على روايته وتلاوته . ومن هنا كان وضع الحديث ، واختلاط الصحيح منه بالموضوع . وأول معنى طرقه الوضاع فى الحديث هو فضائل الأشخاص ؛ فقد وضعوا الأحاديث الكثيرة فى فضل أئمتهم ، ورؤساء أحزابهم . وأول من فعل ذلك الشيعة على اختلاف طوائفهم ، كما يعترف بذلك ابن أبى الحديد — وهو من علماء الشيعة — فى شرح نهج البلاغة إذ يقول : « اعلم أن أصل الكذب فى أحاديث الفضائل جاء من جهة الشيعة . . إلخ[1] » ، وقد قابلهم جهلة أهل السنة بالوضع أيضا .

من أى جيل نشأ الوضع ؟

ليس من السهل علينا أن نتصور صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم — الذين فدوا الرسول بأرواحهم وأموالهم ، وهجروا فى سبيل الإسلام أوطانهم وأقرباءهم ، وامتزج حب الله وخوفه بدمائهم — يقدمون على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما كانت الدواعى لذلك ، بعد أن استفاض عندهم قول حبيبهم ومنقذهم صلى الله عليه وسلم : « إن كذبا علىّ ليس ككذب على أحد ، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[2] » . ولقد دلنا تاريخ الصحابة — فى حياة الرسول وبعده — أنهم كانوا على خشية من الله ، وتقى يمنعهم من الافتراء على الله ورسوله ، وأنهم كانوا على حرص شديد على الشريعة وأحكامها ، والذب عنها ، وإبلاغها إلى الناس كما

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) حديث مشهور ادعى بعض العلماء أنه متواتر رواه سبعون صحابيا ، وادعى غيرهم أكثر ، وقد خرجته كتب السنة كلها .

تلقوها عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، يتحملون فى سبيل ذلك كل تضحية ، ويخاصمون كل أمير وخليفة ، أو أى رجل يرون فيه انحرافا عن دين الله ، لا يخشون لوما ولا موتا ، ولا أذى ولا اضطهادا .

هذا عمر يخطب الناس فيقول مرة : «أيها الناس، لا تغالوا فى مهور النساء ، لو كان ذلك مكرمة عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلخ » فتقوم إليه امرأة فتقول له على مسمع من الصحابة جميعاً : مهلا يا عمر ، يعطينا الله ، وتحرمنا أنت؟ أليس يقول الله عز وجل : « فإن آتيتم إحداهن قنطارا . . » فيقول عمر : « امرأة أصابت ، ورجل أخطأ » . وها هو يجادل أبا بكر حين صمم على قتال أهل الردة ومانعى الزكاة ، فلا يرى عمر قتالهم أخذا بقوله صلى الله عليه وسلم : « أمرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . فيقول أبو بكر ، أليس يقول الرسول : « إلا بحقها » ومن حقها الزكاة . هذا مع أن عمر كان أول من بادر إلى مبايعة أبى بكر يوم السقيفة معترفا له بالفضل والأولوية . ومع ذلك فلم يمنعه حبه وتقديره له من أن يجادله فى أمر يرى أنه الحق ، ويرى أبو بكر خلافه .

وهذا على يخالف عمر فى أمره برجم الزانية الحبلى ، وينكر عليه بقوله : «لئن جعل الله لك عليها سبيلا ، فإنه لم يجعل لك على ما فى بطنها سبيلا » فيرجع عمر ، ويقول : « لولا على لهلك عمر » .

وهذا أبو سعيد ينكر على مروان والى المدينة تقديم الخطبة على صلاة العيد ، مبيناً أنه خالف السنة ، وعمل غير ما كان يعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وها هو ابن عمر — كما روى لنا الذهبى — يقوم — والحجاج يخطب — فيقول : « عدو الله استحل حرم الله ، وخرّب بيت الله ، وقتل أولياء الله » وروى عنه أن الحجاج خطب فقال : إن ابن الزبير بدّل كلام الله ، فقال ابن عمر : كذبت لم يكن ابن الزبير يستطيع أن يبدل كلام الله ، ولا أنت . قال الحجاج : أنت شيخ خرف ، فقال ابن عمر : أما أنك لو عدتَ لعدْتُ .

مثل هذه الأخبار ، ومئات أمثالها قد استفاضت بها كتب التاريخ ، وهى تدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الصحابة كانوا من الجرأة فى الحق ، والتفانى فى الدفاع عما يعتقدون أنه حق ، ومن تغليبهم الحق على كل صديق وصاحب وقريب ، بحيث يستحيل

عليهم أن يكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم اتباعا لهوى ، أو رغبة فى دنيا ؛ إذ لا يكذب إلا الجبان . كما يستحيل عليهم أن يسكتوا عمن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين لا يسكتون عن اجتهادٍ خاطىء ، يذهب إليه بعضهم بعد فكر وإمعان نظر .

واسمع ما يقوله الصحابة أنفسهم فى هذا الموضوع : أخرج البيهقى عن البراء : ليس كلنا كان يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت لنا ضيعة وأشغال ، ولكن كان الناس لا يكذبون فيحدث الشاهد الغائب . وأخرج عن قتادة أن أنساً حدث بحديث ، فقال له رجل أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . قال : نعم ، أو حدثنى من لم يكذب ، والله ما كنا نكذب ، ولا كنا ندرى ما الكذب [1] .

لا يبقى بعد هذا شك فى أن الكذب لم يكن على عهد رسول الله من الصحابة ، ولا وقع منهم بعده ، وأنهم كانوا محل الثقة فيما بينهم لا يكذب بعضهم بعضا . وكل ما كان بينهم من خلاف فقهى لا يتعدى اختلاف وجهات النظر فى أمر دينى ، وكل منهم يطلب الحق وينشده .

أما عصر التابعين فلا شك أن الكذب كان فى عهد كبارهم أقلَّ منه فى عهد صغارهم ؛ إذ كان احترام مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعامل التقوى والتدين أقوى فى ذلك العصر منه فى العصر الثانى . وأيضا فقد كان الخلاف السياسى فى أول عهده ؛ فكانت البواعث على الوضع فى الحديث ضيقة بالنسبة للعصور التالية . ويضاف إلى ذلك أن وجود الصحابة وكبار التابعين المشهورين بالعلم والدين ، والعدالة واليقظة من شأنه أن يقضى على الكذابين ، ويفضح نواياهم ومؤامراتهم ، أو أن يحدّ من نشاطهم فى الكذب .

---

(١) مفتاح الجنه ص ٢٥ .

التشريع الجنائي الإسلامي

للأستاذ عبد القادر عودة

(٥)

فى عقوبة الزنا

١ — التطور التشريعي لعقوبة الزنا : كانت عقوبة الزنا فى صدر الإسلام الحبس فى البيوت ، والإيذاء بالتعيير أو بالضرب . والأصل فى ذلك قوله تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فأذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما » : النساء ١٥ ، ١٦ .

وقد اختلف الفقهاء فى تفسير هذين النصين ؛ فرأى البعض أن النص الأول جاء بحكم النساء فقط ، وليس فيه حكم الرجال ، وأن النص الثانى عطف على النص الأول عطفاً متصلا بقوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم » فكان هذا حكما زائداً للرجال مضافا إلى ما قبله من حكم النساء . وعلى هذا فحكم النساء الزوانى كان الحبس فى البيوت حتى يمتن ، أو يجعل الله لهن سبيلا بحكم آخر ، وحكم الرجال الزناة كان الأذى (١) .

ورأى البعض أن النص الأول مبين لعقوبة الثيب ، وأن النص الثانى يبين عقوبة البكر . وحجتهم أن المراد بقوله تعالى : « من نسائكم » الثيب ؛ لأن قوله من نسائكم إضافة زوجية كقوله : « للذين يؤلون من نسائهم » ولا فائدة نعلمها فى إضافته ههنا إلا اعتبار الثيوبة . كذلك فإن النصين قد جاءا بعقوبتين إحداهما أغلظ من الأخرى ، فكانت الأغلظ للثيب والأخرى للأبكار كالرجم والجلد (٢)

وهناك فريق ثالث رأى أن النص الثانى وهو قوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم » ناسخ لقوله تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » . والقائلون بهذا يحملون قوله عز وجل : « واللذان يأتيانها منكم » على أن المراد به الزانى والزانية (٣) .

---

(١) المحلى الحادى عشر ص ٢٢٩ وما بعدها (٢) المغنى عاشر ص ١١٩

(٣) المحلى الحادى عشر ص ٢٢٩ .

ومن المتفق عليه أن هذين النصين نسخا بقوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » النور : ٢ ، وبقول الرسول صلى الله عليه وسلم « خذوا عنى فقد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة » .

وقد استقر الحكم بعد ذلك على جلد غير المحصن — وتغريبه مع خلاف فى التغريب — وعلى رجم المحصن دون جلده مع خلاف فى الجلد ، وسنتعرض لهذه الخلافات فيما بعد .

وعقوبة الرجم مسلّم بها من جميع المسلمين ، ولا ينكرها إلا طائفة الأزارقة من الخوارج ؛ لأنهم لا يقبلون الأخبار إذا لم تكن فى حد التواتر . على أن الرجم ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل . فأما قوله فهو ما ذكرنا « خذوا عنى فقد جعل الله لهن سبيلا . . . » ، وقوله : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » . وأما فعله فقد أمر برجم ماعز ، والغامدية ، ورجم يهوديين زنيا .

ومن المعقول أن يفرّق الشارع فى العقوبة بين المحصن وغير المحصن؛ لأن المحصن إذا زنا بعد أن توفرت موانع الزنا لديه كان زناه فى غاية القبح ، ووجب أن تكون عقوبته فى غاية الشدة .

ونخلص مما سبق أن عقوبة الزنا نوعان : (١) عقوبة البكر (٢) عقوبة المحصن .

فى عقوبة البكر

٢ — عقاب البكر الزانى : إذا زنى البكر سواء كان رجلا أو امرأة عوقب بعقوبتين أولاهما الجلد ، والثانية التغريب ؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «خذوا عنى فقد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » .

ويلاحظ أن الشريعة تفرق بين عقوبة الأحرار ، وعقوبة الأرقاء فى الزنا ؛ فتخفف عقوبة الرقيق ، وتشدد عقوبة الحر مراعية فى ذلك ظروف كل منهما . ولكننا لن نتعرض هنا إلا للعقوبة المقررة للأحرار ، ناظرين فى ذلك إلى أن الرق أُلغى فى كل أنحاء العالم ، وأن لا حاجة تدعو إلى بيان عقوبة الرقيق .

٣ — عقوبة الجلد : إذا زنى البكر عوقب بالجلد مائة جلدة لقوله تعالى: « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » النور : ٢ ، ولقول الرسول صلى الله

عليه وسلم « خذوا عنى فقد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام »

وعقوبة الجلد حدٌّ : أى عقوبة مقدرة ، فليس للقاضى أن ينقص منها ، أو يزيد فيها لأى سبب من الأسباب ، أو ظرف من الظروف ، وليس له أن يوقف تنفيذها أو يستبدل بها غيرها . كما أن ولى الأمر لا يملك شيئاً من ذلك ، ولا يملك العفو عنها كلها أو بعضها وسنتكلم عن طريقة الجلد وشروطه عند الكلام على تنفيذ العقوبة .

٤ — التغريب : إذا زنى البكر جلد مائة جلدة ، وغرب عاما . والتغريب هو العقوبة الثانية للزانى ، وهو عقوبة مختلف على وجوبها .

فأبو حنيفة وأصحابه يرون أن التغريب ليس واجباً ، ولكنهم يجيزون للامام أن يجمع بين الجلد والتغريب إن رأى فى ذلك مصلحة ؛ فعقوبة التغريب عندهم ليست حداً كالجلد ، وإنما هى عقوبة تعزيرية ، ومن هذا الرأى الشيعة الزيدية (١) .

ويرى مالك والشافعى وأحمد وجوب الجمع بين الجلد والتغريب ، ويعتبرون التغريب حداً كالجلد وحجتهم حديث الرسول « البكر بالبكر جلد مائة ، وتغريب عام » ، وما روى عن عمر وعلى أنهما جلدا وغربا ، ولم ينكر عليهما أحد من الصحابة فصار إجماعا (٢) .

ومن هذا الرأى الظاهريون ؛ فإنهم يرون التغريب حداً ثابتاً بصريح النص (٣) .

٥ — تغريب المرأة : ويرى مالك أن التغريب جعل للرجل دون المرأة ؛ لأن المرأة تحتاج إلى حفظ وصيانه ، ولأن الأمر لا يخلو إن غربت أن تغرب ومعها محرم ، أو أن تغرب دون محرم . والأصل أنه لا يجوز أن تغرب دون محرم ؛ لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذى محرم » ، ولأن تغريبها بغير محرم إغراء لها بالفجور ، وتضييع لها ، وإن غربت بمحرم أفضى إلى تغريب من ليس بزان ، ونفى من لا ذنب له ، وإن كلفت بحمل أجرته ففى ذلك زيادة على عقوبتها بما لم يرد به الشرع ، وبما لا يمكن أن يحدث مثله للرجل .

(١) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٣٩ — شرح فتح القدير ح ٤ ص ١٣٤ — ١٣٦ شرح الأزهار ح ٤ ص ٣٤١

(٢) شرح الزرقانى ثامن ص ٨٣ — المهذب ثان ص ٢٨٤ — المغنى عاشر ص ١٣٣

(٣) المحلى حادى عشر ١٨٣ — ١٨٨

ولهذا يخصص المالكيون الخبر الوارد فى التغريب ، ويجعلونه فى حق الرجل إذ يلزم من العمل بعمومه مخالفة مفهومه ؛ فإنه دل بمفهومه على أنه ليس على الزانى أكثر من العقوبة المذكورة فيه ، ووجوب التغريب على المرأة يلزم منه الزيادة على ذلك . كذلك فإن العمل بعموم النص يؤدى إلى فوات حكمته ؛ لأن الحد وجب زجراً عن الزنا ، وفى تغريبها إغراء به ، وتمكين منه (١) .

ويرى الشافعى وأحمد والظاهريون أن التغريب عقوبة واجبة على كل من الرجل والمرأة (٢) .

٦ — ماهية التغريب : اختلف الفقهاء فى ماهية التغريب ، فقال مالك وأبو حنيفة إن التغريب معناه الحبس ، فيحبس المغرب فى البلد الذى يغرب إليه مدة لا تزيد على سنة ؛ فالتغريب عند المالكيين والحنفيين معناه الحبس فى بلد آخر ، ومن هذا الرأى الزيديون (٣) .

ويرى الشافعى وأحمد أن التغريب معناه النفى من البلد الذى حدث فيه الزنا إلى بلد آخر ، على أن يراقب المغرب بحيث يحفظ بالمراقبة فى البلد الذى غرب إليه ، ولا يحبس فيه ؛ فالتغريب عند الشافعيين والحنابلة هو الوضع تحت المراقبة فى بلد آخر (٤) ، ومن هذا الرأى الظاهريون (٥) .

ويشترط بعض الفقهاء فى التغريب أن يكون لمسافة لا تقل عن مسافة القصر ، ويرى البعض أن يكون النفى من عمل الحاكم إلى عمل غيره ، دون التقيد بمسافة معينة ؛ فلو نفى إلى قرية تبعد عن محل الحادث ميلا لكفى ، كما يجوز أن ينفى من مصر إلى مصر ؛ لأن النفى ورد مطلقاً فتناول أقل ما يقع عليه الاسم (٦) .

---

(١) شرح الزرقانى ثامن ص ٨٣ — المغنى عاشر ص ١٣٣

(٢) أسنى المطالب رابع ص ١٢٩ — المغنى عاشر ص ١٣٤ — المحلى حادى عشر ص ٣٣٢

(٣) شرح الزرقانى ثامن ص ٨٣ — شرح فتح القدير رابع ص ٢٧٠ — حاشية ابن عابدين ثالث ص ٢٠٣

(٤) أسنى المطالب رابع ص ١٣٠ — المغنى عاشر ص ١٣٦

(٥) المحلى حادى عشر ١٨٢ وما بعدها .

(٦) أسنى المطالب رابع ص ١٣٠ — المهذب ثان ص ٢٨٨ — المغنى عاشر ص ١٣٦

والمقصود من المراقبة أن يمنع الزانى من العودة إلى بلده قبل انتهاء المدة ، أو إلى ما دون مسافة القصر على رأى البعض . ويرى البعض أن المراقبة مقصود بها إلزام المغرب بالإقامة فى البلد المغرب إليه ؛ فلا يمكن من الضرب فى الأرض (١) .

ويرى الشافعيون أنه إذا خيف رجوع الزانى إلى البلد الذى غرب منه جاز حبسه(٢) .

وإذا رجع المغرب إلى بلده أعيد تغريبه ، ولكنهم يرون أن تستأنف المدة ليتوالى الإيحاش ، وحتى لا تفرق السنة (٣) . أما الحنابلة فيرون أن يبنى على المدة السابقة ، فيعاد تغريبه ليكمل ما بقى من الحول (٤) .

وإذا زنى المغرب فى البلد الذى غرب إليه جلد ، وغرب إلى بلد آخر ، ودخلت المدة الباقية من التغريب الأول فى مدة التغريب الثانية ؛ لتجانس الحدين . وهذا متفق عليه بين مالك والشافعى وأحمد ، ولكن الظاهريين يرون أن تستتم مدة التغريب الأولى ، ثم يبدأ فى الثانية (٥) ؛ لأن القاعدة عندهم أن ما وجب من حد لا يجزى عنه حد آخر .

وإذا زنى الغريب غرب إلى غير بلده ، وإذا زنى فى البلد الذى غرب إليه غرب إلى بلد آخر غير الذى غرب منه . ويرى بعض المالكيين أن سجن الغريب فى البلد التى زنى فيها يعتبر تغريبا له ، ولكن الشافعيين والحنابلة يشترطون أن يغرب عنها (٦) .

(١) أسنى المطالب رابع ص ١٣٠
(٢) أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٣٠
(٣) المرجع السابق
(٤) الأقناع جـ ٤ ص ٢٥٢
(٥) شرح الزرقانى ثامن ص ٨١ — أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٣٠ — الإقناع جـ ٤ ص ٢٥٢ المحلى جـ ١١ ص ١٣٤
(٦) المراجع السابقة .

فى الفقه الإسلامى

العقود والشروط بين التقييد والحرية

للدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

تكلمنا فى العدد الماضى ، فى هذا البحث ، عن المبدأين العامين : مبدأ التقييد الذى أخذ به الظاهرية ، ومبدأ الإباحة الذى اختاره ابن تيمية . واليوم نتم البحث بالكلام عن المذاهب الأخرى التى تجىء فى الوسط بين هذين المذهبين المتعارضين إلى أبعد الحدود ؛ نعنى مذهب الأحناف الذى لا يبعد منه مذهب الشافعية ، ومذهب الحنابلة — وبخاصة ابن تيمية — الذى يقرب منه مذهب المالكية .

* * *

٩ — للعرف فى التشريع منزلة كبيرة عند الحنفية ، حتى إنهم يجعلون الثابت به كالثابت بالنص ؛ لأن ما ثبت به يكون معتمداً بلا ريب على دليل شرعى ، وهم فى هذا يعتمدون على هذا الأثر المروى عن ابن مسعود ، والذى يراه الإمام أحمد حديثاً ، ورواه فى مسنده : « ما رآه المسلمون حسناً ، فهو عند الله حسن » . كما قال قائلهم فى ذلك :

والعرف فى الشرع له اعتبار   لذا ، عليه الحكم قد يُدار

ومن أجل ذلك نراهم يجعلون العرف العام : أى الذى لا يختص ببلد دون آخر ، يصح أن يعارض أدلة الفقه الأخرى . ولهذا أيضاً ، يرون أن الشرع يقرّ ما يقرّه العرف ، إلا إذا كان هناك نص يخالفه . ومن ثَمَّ أجازوا كثيراً من العقود والشروط التى لا تشهد لها نصوص الشريعة .

وفى هذا يقول العلامة ابن عابدين : « إن المسائل الفقهية ، إما أن تكون ثابتة بالنص (وهنا لا يعتبر العرف إذ لا يجوز أن يخالف النص) ، وإما أن تكون ثابتة بضرب اجتهاد ورأى . وكثير منها يبنيه المجتهد على ما كان فى عرف زمانه ، بحيث لو كان فى زمان العرف الحادث لقال بخلاف ما قال أولا . ولهذا ، قالوا فى شروط الاجتهاد إنه لا بد من معرفة عادات الناس ، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف

الزمان ؛ لتغير عرف أهله ، أو لحدوث ضرورة ، أو فساد أهل الزمان بحيث لو بقى الحكم على ما كان عليه أولا للزم المشقة والضرر بالناس ، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ، ودفع الضرر والفساد ... ولهذا ، نرى مشايخ المذهب خالفوا ما نص عليه المجتهد فى مواضع كثيرة بناها على ما كان فى زمنه ؛ لعلمهم بأنه لو كان فى زمنهم لقال ما قالوا أخذاً من قواعد مذهبه .

« فمن ذلك ، إفتاؤهم بجواز الاستئجار على تعليم القرآن ونحوه ؛ لانقطاع عطايا المعلمين التى كانت فى الصدر الأول . ولو اشتغل المعلمون بالتعليم بلا أجرة لضاعوا وضاع عيالهم ، ولو اشتغلوا بالاكتساب من حرفة وصناعة لضاع القرآن والدين ؛ فأفتوا بأخذ الأجرة عليه ، وكذا على الإمامة والآذان ، مع أن ذلك مخالف لما اتفق عليه أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد من عدم جواز هذا الاستئجار وأخذ الأجرة عليه »(١)

ثم يقول بعد ذلك : « فهذا كله وأمثاله ، دلائل واضحة على أن المفتى ليس له الجمود على المنقول فى كتب ظاهر الرواية ، وإلا يضيع حقوقا كثيرة ، ويكون ضرره أعظم من نفعه » (٢)

١٠ — بهذه القاعدة ، اعتبار العرف دليلا شرعياً ما لم يخالف النص ، وسّع الأحناف كثيراً فى العقود والشروط ؛ حتى ليمكن القول بأن كثيراً من العقود التى يعرفها عصرنا الحاضر ، يقرها مذهب الأحناف ، ما دامت لا تعارض نصاً من نصوص الشريعة .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أنه فرق كبير بين الشريعة والفقه : الأولى تنزيل من رب العالمين ، والثانى عمل رجال مجتهدين ، فلنا أن نأخذ وندع مما قالوا ورأوا .

١١ — وفى ناحية الشروط بخاصة ، نجد الأحناف يقسمون الشروط التى تقترن بالعقود إلى : شروط صحيحة ، وشروط فاسدة ، وأخرى باطلة .

(ا) فالشرط الصحيح ما كان موافقاً لمقتضى العقد ؛ كشرط البائع تسلّم الثمن قبل تسليم المبيع ، أو مؤكداً لهذا المقتضى كشرطه رهناً بالثمن المؤجل ، أو أذِنَ به الشارع كشرط الخيار له أو للمشترى مدة معينة ، أو جرى به العرف كشراء (راديو) على أن يتعهده البائع بالإصلاح مدة معروفة .

---

(١) رسائل ابن عابدين طبعة الإستانة جـ ٢ : ١٢٥ — ١٢٦

(٢) رسائل ابن عابدين جـ ٢ : ١٣١

وحكم العقد مع الشروط الصحيحة أن يكون صحيحاً ، وأن يكون الشرط ملزما يجب الوفاء به ؛ لأن مشترطه لم يرض بالتعاقد إلا على أساسه .

(ب) والشرط الفاسد ما لم يكن شيئاً من هذا كله ، ولكن يكون فى اشتراطه منفعة لأحد المتعاقدين أو لشخص آخر ؛ مثل أن يبيع داراً على أن يظل مقيما بها شهراً أو اثنين مثلا ، أو شرط الزوجة ألا يخرجها الزوج من دار أهلها ، أو يشترط الزوج أن تترك عملها إن كانت موظفة ، أو كشرط بائع أرض زراعية على أن يظل المستأجر بها لآخر العام .

وهذه الشروط إن وجدت فى عقد مالى ، كالبيع والإجارة مثلا أفسدته ، وإن وجدت فى عقد آخر ، مثل عقود التبرعات والتأمينات والزواج ، يبطل الشرط ويصح العقد ؛ لأن التعادل فى العقود المالية مطلوب بين طرفى العقد (١) .



(ج) أما الشرط الباطل ، فهو مالم يتحقق فيه شىء مما يجب أن يتحقق فى الشرط الصحيح ، ولم يكن مع هذا فيه مصلحة لأحد ما ؛ كالذى يبيع داراً على أن لا يسكنها أحد شهراً كل عام ، أو سيارة على أن لا يستعملها أحد يوما كل أسبوع .

وحكم الشرط الباطل أنه يعتبر لغواً لا اعتبار له ، ويكون العقد صحيحاً ، سواء كان عقد معاوضة أو غيره .

١٢ — على أن عبد الله بن شُبْرُمة (كان قاضى الكوفة ، وفقيهاً ديّناً وتوفى عام ١٤٤ ﻫ) ذهب إلى أن كل العقود التى اقترن بها شرط من التى نسميها شروطاً فاسدة ، تكون صحيحة هى وهذه الشروط ، لا فرق بين عقود المعاوضات المالية وغيرها (٢) .

وبجانب ابن شبرمة ، نجد محمد بن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَى المتوفى عام ١٤٨ ﻫ ، قد ذهب إلى أن هذه الشروط لا تؤثر فى العقد مطلقا ، عقد معاوضة أو غيره ؛ فتبطل هى ويكون العقد صحيحا . وبطلانها هو موضع الخلاف بينه وبين معاصره ابن شبرمة .

١٣ — وقد يشهد بصحة ما ذهب إليه هذان الفقيهان : أى أن الشرط الفاسد لا يبطل العقد ، وإن كان عقد معاوضة ، ما رواه البخارى ومسلم من أن جابراً

---

(١) راجع مثلا نظرية العقد لابن تيمية ص ٢١٥

(٢) راجع باب الشروط فى البيع من فتاوى قاضيخان .

ابن عبدالله باع الرسول جملا له، واشترط حملانه عليه إلى أهله ، فرضى الرسول بالشرط وأقره عليه ، ودفع الثمن له [١] . فإن اشتراط البائع ركوب الجمل حتى يصل إلى أهله شرط لا يقتضيه العقد فيكون فاسداً ؛ لأن مقتضى العقد أن يملك المشترى ما اشتراه بلا قيد .

هكذا ، يقول بعض الكاتبين ، استدلالا لما ذهب إليه من يصحح عقود المعاوضة مع الشروط الفاسدة . ولكن لماذا لا نقول إن هذا شرط صحيح ، وإن كان فيه منفعة لأحد المتعاقدين؛ لأن الشارع — وهو الرسول صلى الله عليه وسلم هنا — قد أذن به ، وإن كان مخالفا لمقتضى العقد ولم يجر به العرف ؟ لنا أن نقول هذا . وإذاً يكون كل من العقد والشرط صحيحاً بلا ريب .

١٤ — وأخيراً ، نصل إلى الكلام على مذهب الحنابلة وبخاصة ابن تيمية ، وقد تركنا عامدين الكلام على مذهب الشافعية لقربه من الحنفية ، ومذهب المالكية لقربه من الحنابلة ، كما ذكرنا من قبل ، على أنه قد يجيء الكلام عرَضا عنهما أيضا أثناء الحديث عن الحنابلة .

يجيز الحنابلة من العقود والشروط ما لم يجزه غيرهم ، ومن ذلك اشتراط المشترى صفة معينة فى المبيع ، أو اشتراط بائع السيارة مثلا الانتفاع بها مدة معلومة ، واشتراط الزوجة ألا يتزوج زوجها عليها ... إلخ . فهذه الشروط صحيحة يجب على من التزمها الوفاء بها ، لا فرق فى ذلك بين عقد وعقد ، حتى الزواج .

وبكلمة واحدة ، الحنابلة يجيزون كل شرط إلا فى حالتين :

(ا) أن يكون الشرط مخالفا لمقتضى العقد والغرض منه .

(ب) أن يكون الشرط مخالفا لحكم الله ورسوله .

إن الشرط فى الحالة الأولى يمنع أحد المتعاقدين من استعمال ما يثبته العقد له من حقوق ؛ مثل أن يبيع أحد داره على أن يقفها المشترى على جهة ما ، أو على ألا يبيعها مطلقا ، أو بشرط أن يسكن فيها بنفسه فلا يؤجرها للغير . إلا أن هذا الضرب من الشروط وإن كان فاسدا ، لا يُفسد العقد ، بل يعتبر الشرط لاغيا ، والعقد صحيحا . وهنا الفرق بين الحنابلة وبين الأحناف [٢] .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، لمحمد فؤاد عبد الباقى ، طبع الحلبى سنة ١٩٤٩ جـ ٢ : ١٧٧ — ١٧٨

(٢) كشاف القناع لابن إدريس الحنبلى جـ ٢ : ٤٠ — منتهى الإرادات لابن يونس البهوتى جـ ٢ : ٢٥ — ٢٦

لكن الشرط في الحالة الثانية ، أي حالة مخالفته لحكم الله ورسوله ، يكون فاسدا ويُفسد العقد أيضا . وذلك مثل إذا اقتضى الشرط أن يجمع المتعاقدان صفقتين في صفقة واحدة ؛ كأن يشترط المقرض أن يشترى المقترض بالمال الذى يقترضه منه شيئا من الأشياء ، وكأن يُسلف تاجر قطن مبلغا من المال لمزارع على أن يبيع ما يجنيه من القطن له ، لا لغيره .

مثل هذا الضرب الثاني من الشروط يفسد العقود التى ترد فيها[1] ؛ لأن الرسول نهى عن صفقتين في صفقة ، ولأنها تؤدى للنزاع غالبا بين المتعاقدين ، ولأن في بعضها شبهة الربا في صورة قرض جرّ نفعا . على أننا لا ندرى لم لا يصح كل ذلك إذا لم يؤد إلى نزاع ، ولم يكن فيه شبهة الربا !

١٥ — هذا عن الحنابلة بصفة عامة ، أما ابن تيمية بخاصة فهو أوسع صدراً للعقود والشروط معاً . إنه يجيز كل عقد وشرط لم يحرمه الله ورسوله ، ولا يستثنى في هذا . وسنذكر بعض تطبيقاته لهذا الأصل . ويقول هو ، ومن يوافقه في هذا الأصل بقول الرسول : « المسلمون عند شروطهم ، إلا شرطا أحلّ حراما أو حرّم حلالا » ، وبقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . ولكن علينا قبل ذكر هذا ، أن نبين كيف يستدل ابن تيمية بالنقل والعقل للمذهب الذى ذهب إليه .

إنه يقول : « إن الأصل في العقود والشروط الجواز والصحة ، ولا يحرم ، أو يبطل منها إلا ما دل على تحريمه ، أو إبطاله نص أو قياس عند من يقول به ، وأصول أحمد رضى الله عنه المنصوصة عنه تجرى أكثرها على هذا القول ، ومالك قريب منه ؛ لكن أحمد أكثر تصحيحا للشروط ، فليس في الفقهاء الأربعة أكثر تصحيحاً للشرط منه »[2] .

ومعنى هذا ، أن ما يعقده الناس من عقود ، وما يلتزمونه من شروط ، ليس لنا أن نقول بتحريمه إلا إذا ورد الشارع بذلك ، لا أنه لا يصح إلا إذا ورد منه حِلّه[3] .

وبعد هذا الأصل العام ، نرى ابن تيمية يسوق الكلام (ص ٣٢٩ وما بعدها

(١) كشاف القناع جـ ٢ : ٣٩ — ٤٠ ، منتهى الإرادات جـ ٢ : ٢٥ .
(٢) فتاوى ابن تيمية جـ ٣ : ٣٢٦ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٢٨ .

من ج ٣ من فتاويه) إلى الاستدلال عليه من آيات الكتاب ، وأحاديث الرسول ، ونظر العقل ، فساق من الآيات والأحاديث ما سبق ذكر شيء منه .

١٦ — وأما الاستدلال على مذهبه من ناحية العقل ، فإنه يقول فيه : « إن العقود والشروط من باب الأفعال العادية (أى ليست من العبادات) والأصل فيها عدم التحريم ، فيُستصحَب عدم التحريم فيها حتى يدل دليل على التحريم . كما أن الأعيان (كالمطعومات والمشروبات) الأصل فيها عدم التحريم ، وقوله تعالى : « وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم » عام فى الأعيان والأفعال ، وإذا لم تكن حراما لم تكن فاسدة ؛ لأن الفساد إنما ينشأ عن التحريم ، وإذا لم تكن فاسدة كانت صحيحة[1] .

ثم يخلص مما تقدم إلى هذه النتيجة ، وهى إننا إن حرمنا ما يجرى بين الناس فى المعاملات العادية من عقود وشروط ، بغير دليل من الشارع ، كنا قد حرّمنا مالم يحرمه الله . لكن الأمر ليس كذلك فى العقود غير العادية ، أى فى التى فيها ما يخالف حكم الله ورسوله ؛ كأن يعير سيد أمته لآخر يستمتع بها كما يعيره شيئا من متاعه ، فإن هذا طبعا حرام لا يجوز[2] .

والآن ، وقد ظهر — بالنقل والعقل — أنه لا يحرم من العقود والشروط عامة إلا ما حرّمه الشارع ، فالوفاء بها واجب عقلا وشرعا كذلك ، وبخاصة والوفاء بما يلتزمه الإنسان راضيا مختارا من الواجبات التى تضافرت الملل والعقول على القول بها .

وأيضا ، حين يقول الله : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » نجده — كما يذكر ابن تيمية — لم يشترط فى التجارة إلا التراضى ، وذلك يقتضى أن التراضى هو المبيح للتجارة . وإذا كان كذلك ، فإذا تراضى المتعاقدان على شيء يكون حلالا بدلالة القرآن ، إلا أن يكون ما تراضيا عليه مما حرمه الله ورسوله كالتجارة فى الخمر ونحو ذلك[3] .

١٧ — من ذلك كله نرى أن ابن تيمية يصحح كل العقود والشروط التى تجرى بين الناس فى المعاملات العادية ، إلا ما يكون معارضا لحكم الله والرسول ، أو يكون شرطا يتعارض مع المقصود من العقد .

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ٣٣٤ .

(٢) نفسه ص ٣٣٥ .

(٣) الفتاوى ج ٣ : ٣٣٦ — ٣٣٧ .

فالأول لقول الرسول : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » . وذلك مثل أن يشترط أحد المتعاقدين فى شراء جارية أو عبد أن يكون نسب الولد لغير أبيه ، أو أن يكون الولاء إذا صار العبد حرًّا لغير من أعتقه . وهذا وذاك ، لأن الله يقول : « ادعوهم لآبائهم » ورسوله يقول : « الولاء لمن أعتق » ؛ ردًّا على ما كان عليه الأمر فى الجاهلية من انتساب الرجل لغير أبيه ، وتولى العبد متى صار حراً غير مواليه(١) .

وأما الضرب الثانى : أى الشرط المنافى للمقصود من العقد ، مثل أن يشرط البائع على المشترى ألا ينتفع بما اشترى ببيع أو تأجير ، فيكون باطلا ؛ لأنه جمع بين المتناقضين ، أى بين إثبات المقصود من العقد ونفيه ، فلا يحصل شىء(٢) .

١٨ — فى غير هاتين الحالتين ، يكون كل من العقد والشرط صحيحا ؛ سواء فى ذلك عقود المعاوضات ، والتبرعات ، والتوثيقات أو التأمينات ، والزواج ، ونحو ذلك كله . وسواء كان الشرط استثناء منفعة فى المعقود عليه ، أو طلب صفة يصح قصدها فى المبيع أو الزوج أو الزوجة ، أو غير هذا وذاك من الشروط .

فى كل ذلك ، يكون العقد صحيحا ، والشرط لازما يجب الوفاء به ؛ وإلا كان للطرف الآخر حق فسخ العقد ؛ لأنه ما رضى عقده إلا بالشروط التى اشترطها ، ومبنى العقود بصفة أساسية على الرضى ، كما هو معروف مقرر

١٩ — وإذا قال الأحناف بأن لعقد الزواج من الخطورة والقداسة مالا يجعله يقبل الفسخ لفوات بعض ما اشترطه الزوج أو الزوجة ، يقول ابن تيمية بأنه بسبب هذا يجب أن يقبل الفسخ ؛ لأن الأسرة والحياة القارة الهنيئة بين الزوجين لا تتوفر إلا إذا رضى كل منهما عن الآخر ، بأن وجد فيه كل ما رغب من شروط يصح قصدها وطلبها .

من الحق إن إلزام أحد طرفى العقد بصحة العقد ولزومه ، مع فوات ما شرط من شروط يصح قصدها ، ولها فائدتها وقيمتها ، يعتبر إلزاما له بما لم يلتزمه وبما لم يرض به ، بل بما لم يُلزمه به الله ورسوله . والمسلم لا يلزمه شىء إلا بالتزامه كما فى العقود ، أو بإلزام الله ورسوله كما يقول ابن تيمية .

---

(١) نظرية العقد ص ١٤ — ١٥ .

(٢) الفتاوى ج ٣ : ٣٣٧ .

٢٠ — وما أحسن وأحكم وأوجز هذه العبارة التى نقلها بنصها عنه ، لتكون خاتمة مذهبه فى العقود ، ما يصح منها وما لا يصح ، وفيما يجوز أو لا يجوز اشتراطه من الشروط ، وهى :

« ومقاصد العقلاء إذا أُدخلت فى العقود ، وكانت من الصلاح الذى هو المقصود لم تذهب عفوا ، ولم تهدر رأسا ؛ كالآجال فى الأعواض ، ونقود الأثمان المعينة ببعض البلدان ، والصفات فى المبيعات ، والحرفة المشروطة فى أحد الزوجين ، وقد تفيد الشروط مالا يفيده الإطلاق ، بل ما يخالف الإطلاق » .

***

وبعد : فإننا نعتقد بحق — بعدما تقدم — أن ما ذهب إليه ابن تيمية فى هذه المسألة ، فيه توسعة جدّ كبيرة على الناس فى المعاملات ، وفيه ما يساعد على أن نجد فى الفقه الإسلامى حلولا لكثير من المشاكل والمسائل التى تجدّ كل يوم فى علاقات الناس بعضهم مع بعض ، فى سائر النواحى ، ومنها العقود على اختلافها . والله الهادى إلى سواء السبيل .

الناس ثلاثة

١ — غافل : لم يدر سرّ وجوده ، ولم يدرك الغاية من حياته ؛ فهو بلا قلب ، وبلا عقل ، وبلا أثر . حىّ كميت ، وموجود كمفقود « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ؛ أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

٢ — ومخطىء : التبست عليه المسالك ، واشتبهت أمامه السبل ؛ فضل الطريق وظن الغاية من الحياة لذة عاجلة ، ومتعة فانية ، وشهوة زائلة ، وكأسا مترعة ، وامرأة وضيئة ، ثم ولا شىء بعد ذلك « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الدنيا . والله عنده حسن المآب » .

٣ — وعارف : انقشعت عن نفسه سحائب الوهم ، وأشرقت فى حنايا فؤاده أضواء الفهم ؛ فعرف ربه ، وعرف نفسه ، وأدرك سر حياته ؛ فجعل الله غايته ، والرسول قدوته ، والقرآن شرعته ، والجهاد وسيلته ، والموت فى سبيل الله أمنيته « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

حسن البنا

استغلال الأرض في الإسلام

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة في الباكستان

(٤)

روح التشريع وحكمته :

الأرجح عندنا أن للفرد أن يملك الأرض الزراعية . وذلك لا شك استغلال لرأس المال ، ولكن ليس له قطعاً أن يكريها ؛ ذلك لأن كراء الأرض لا يتعدى أن يتقاضى المالك جُعلا ثابتاً في أمد معين نظير تمكين المزارع من أرضه ليفلحها ويستنبتها . أو بعبارة أخرى إنما الكراء في الأرض إعطاء المالك أرضه — أو رأس ماله — إلى من هو في حاجة إليه ليستغله ويكتسب — إن استطاع — من وراء هذا الاستغلال ، وذلك نظير أجر ثابت يتقاضاه صاحب رأس المال . وهذا مخالف للاسلام في أحكامه العامة والخاصة ؛ إذ لا يعدو أن يكون شكلا من أشكال الإقراض بفائدة . ولعمرى أن اشتراط كراء الأرض نظير مبلغ معين من ذهب أو فضة لهو أمعن في الخطأ ، وأقمن بالحكم بالتحريم لا بالتحليل ، وأبعد ما يكون عن منطق الإسلام السليم ، وجدير ألا يكون صادراً عن الرسول عليه السلام ؛ إذ كيف يأبى أن تؤجر الأرض بجزء مما يخرج منها ، ثم يرضى أن يدفع المؤاجر لصاحبها حصة معينة من ذهب أو فضة ؟

القاعدة الإسلامية العامة في مثل هذه المعاملات ألا يعيش الفرد من عمل غيره نظراً لانتفاء العدالة ، وانتقاض المساواة بين أفراد المجتمع الذي وصفه مؤسسه عليه السلام بأنه كالبنيان الواحد . الواجب إذن — إذا ما طبقنا القواعد الإسلامية — أن يثاب الفرد بعمله : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » ، « أولئك لهم نصيب مما كسبوا » . هذه القاعدة أقرب ما تكون إلى البديهة . ونحن نردفها هنا بمسألة أخرى : هي أن الإسلام حرص أشد الحرص على أن يكون أفراد المجتمع كلهم عاملين منتجين ، لا ينقطع لهم عمل أو إنتاج ؛ فذلك دليل الحيوية وسر النهوض والارتقاء . وحكمة ثالثة تعيننا على فهم روح التشريع الإسلامي وحكمته إزاء استغلال الأرض خاصة ، ورؤوس الأموال عموماً : هي النهي الصريح القاطع عن وجود طبقات متمايزة متنابزة متحاسدة متنافرة

فى المجتمع الإسلامى الصحيح . وليس المقصود بعدم التمايز هنا وجوب تحقيق المساواة المادية مساواة مطلقة بين الأفراد . فذلك فوق أنه منصوص على نقيضه فى القرآن فهو مخالفة لفطرة الناس وتفاوتهم ، ذلك التفاوت الذى لا يتصور العمران بدونه ؛ إنما يقصد الإسلام بنهيه عن وجود الطبقات المتمايزة إلى أن تكون الأمة كلها متساندة متفقة المصالح ، ما يضر جماعة منها يضر الكل فى الصميم . كما أن الإسلام بهذا المبدأ لا يقبل أن يكون تفاوت الرزق سبباً لاستعلاء طائفة على طائفة أخرى ؛ إذ أن القياس المادى لا يجب بحال من الأحوال أن يكون معياراً توزن به أقدار الناس ومكاناتهم .

ولئن كان عصرنا الحالى قد فرض ذلك الميزان على بعض البلاد ، فصار الأصلح هو الأغنى ، فإنما ذلك تدليل مردود ، وأمر موجب للأسف ؛ إذ تُعزَى إليه أغلب أسباب الفوضى الاجتماعية ، والتناحر البشرى ، والانقلاب الفكرى التى نشاهدها فى هذا العصر .

هذه الكليات الثلاث : نصيب المرء على قدر عمله (لا ملكيته) ، وضرورة بذل الجهود الفردية ، وعدم وجود الطبقات الاجتماعية ، تبدى لنا حكمة التشريع ، ورأى الإسلام فى الملكية واستغلال الثروات . تفصيل ذلك أن الملكية وحدها لا تعنى أكثر من إعطاء المالك حقوقاً على ما يمتلك ، ولكنها لا تعنى قطعاً ضمان الرزق للمالك ؛ لأن الثروة المملوكة عقيمة دون عمل ، لن تدر على مالكها رزقاً ما لم يبذل فيها عملا . ومن هنا لم يجز أن ينام المالك عن ملكيته التى يتعهدها غيره بالاستثمار والاستغلال ، ثم ينال المالك نظير ذلك جزءاً موفوراً ذهباً أو ورِقاً .

قد يذهب البعض إلى أن هذه القاعدة العامة تتضمن بعض التناقض إذا خرجنا من التعميم إلى التخصيص ، إذ ما بالنا نسمح لصاحب الدار أو الآلة أن يؤجر داره أو آلته ، ولا نسمح لصاحب الأرض بمثله ؟ جواب ذلك يسير . فالدار والآلة كلتاهما سلعة استهلاكية ، وإن كان استهلاكهما طويل المدى ، وسيأتى وقت بعُد أم قصر يصبحان فيه أثراً بعد عين . واستغلالها هو بدون شك استغلال لمنفعتهما ، يستلزم بحكم الضرورة استهلاكا للعين ذاتها ، وصاحب الآلة أو المنزل عليه دواماً أن يعمل على صيانتهما وترميمهما ، وحفظهما من التلف الذى لا يمكن تلافيه كلية سواء استعملا أم أهملا . ذلك أن طبيعة الأشياء الاستهلاكية أن تفنى باستعمالها ؛ فمالكها مجبر على اقتضاء ثمنها (أو اقتضاء ثمن منفعتها حالة تأجيرها) وإلا استهلكت ، فاستهلك رأس المال المستغل فيها دون مقابل للجهد المبذول فى إنشائها أو صناعتها ، وبعبارة أخرى مثل هذه السلع الاستهلاكية ، إنما تنشأ أو تصنع حتى يستفيد صاحبها من استثمار عمله فيها . وظاهر أن

وضع الأرض يخالف تماماً لمثل هذه السلع ؛ فهى ليست استهلاكية ، ولا تفنى بحكم الاستغلال والاستثمار ، كما أنها ليست (أو على الأقل ليس أعلبها) من عمل الناس وإنشائهم ، ولكنها كما سبق القول من عمل الطبيعة ، ومواهب الخالق تبارك وتعالى .

هنا يعرض سؤال آخر : إذ لو قلنا بهذا فما حكم مالك الدار أو الآلة الذى يرتزق من تأجير آلته أوداره ، ولايقوم بعمل آخر ؟ هذا عندنا رزق حلال ؛ إذ هو أجر لاحق لعمل سابق ، وهذا الأجر لن يستمر أبداً بل سينتهى بانتهاء الدار أو الآلة . وحينئذ عليه أن يعمل من جديد ليبنى داراً أخرى أو يصنع آلة ثانية . وقياس هذا الوضع بصاحب الأرض بيّن الاختلاف ، ومع هذا فإن لنا تحفظاً على إجازة هذا التحليل ، إذ المجتمع الإسلامى السليم الكامل لا يكاد يسمح لبعض الأفراد أن يعيش من أهون السبل بمثل هذا الاستغلال ؛ لأن من حق الفرد على الدولة أن تؤمن له مسكنه ضمن واجباتها نحوه فى تأمين ضرورات حياته (مثل المسكن والمأكل والمشرب والتمريض والتعليم والمساواة فى الفرص أو حق العمل) . من أجل هذا كان احتمال وجود طبقة من الملاك (غير الزراعيين) بعيداً كل البعد فى المجتمع الإسلامى ، فإن وجدت مثل هذه الطبقة لخلل فى البنيان الاجتماعى ، فذلك خطأ التطبيق وليس خطأ التشريع . وعلى أية حال فالإسلام لا يبيح عموما (القعود عن طلب الرزق) ولا يقر أن يتحكم بعض الناس فى البعض الآخر ، أوأن توجد طبقة من الناس متميزة عن سائر الطبقات . لذلك كان تملك السلع الإنتاجية أو الاستهلاكية مباحاً بشرط ، وشرطه ما أسلفنا من تحفظات .

للفرد إذن أن يتملك ما شاء من رؤوس الأموال الثابتة والمنقولة ، بما فى ذلك الأرض ؛ لأن الملكية الفردية ، وإن لم تكن عندنا غريزة أصلية فى الإنسان ، إلا أنها من مستلزمات تميز الشخصية ، كما هى من مقومات حسن الاستغلال والاستثمار ، ولئن أباح الإسلام الملكية الفردية بشكل تام ، إلا أننا نجد أن هذه الإباحة محفوفة بكثير من القيود والتحفظات ، حتى إن الممعن فى دراسة روح التشريع ليتردد طويلا قبل أن يقتنع بهذه الإباحة . والعلة فى هذا راجعة إلى أن المشرع يخشى دائماً طغيان الفرد إن استأثر بجزء كبير من الثروة المادية : « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » ، وليس معنى هذا أن الإسلام يفضل حياة الفقر للأفراد على حياة الغنى ، إنما المقصود ألا تتسع الهوة بين دخول الأفراد ؛ إذ كثيراً ما يغرى هذا بتحكم الأغنياء فى الفقراء عن طريق الاحتكار الفعلى والاستعلاء المادى ، وألا توجد طبقات متضاربة المصالح والغايات . نستخلص من هذا أن القيود الواردة على الملكية عامة يمكن أن تلخص فيما يلى : —

(ا) عدم الاحتكار ، وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد النهى .

(ب) ألا تقعد الملكية بصاحبها عن العمل ؛ وكل ملكية تؤدى إلى البطالة فهى غير جائزة شرعا .

(حـ) ألا تكون الملكية سبباً لوجود طبقات من الناس متمايزة فى الحياة الاجتماعية مظهراً ، وألا تؤدى إلى تمتع طبقة الملاك بحقوق عامة لا يتيسر لغيرهم من الناس أن يستمتعوا بها . وبعبارة أخرى ألا تكون الملكية معياراً تقاس به أقدار الناس ومنازلهم ؛ فيعظم من يملك ، ويحقر من أقفرت يداه .

هذه القيود تبدو — ولاشك — قاسية لأنصار المدرسة الاقتصادية الحرة ، أو ما يرمز إليهم أحياناً (بالكلاسيك) . كما أن الاشتراكيين قد يعتبرونها مرادفا لتدخل الدولة تدخلا متغلغلا لا مناص منه ؛ إذ المعلوم أن من أكبر حججهم التى يناقضون بها الرأسماليين أن الحرية الاقتصادية لا بد أن تؤدى إلى نوع من الاحتكار الفعلى للرأسماليين ، كما أنها بحكم طبيعتها مدعاة إلى وجود طبقات متنازعة . ونحن هنا لا يهمنا رضاء الرأسماليين أو الاشتراكيين . ولكن يجب أن نذكر أن نظرية الملكية الخاصة ليست مطلقة فى الشريعة ، ويتبع ذلك تقييد استغلال الشىء المملوك .

وخلاصة القول أن حكم الأرض الزراعية فى الإسلام هو وجوب استغلالها استغلالا يدر أكبر محصول بأقل جهد اجتماعى ؛ حتى يجد الناس كلهم كفايتهم ، فإن تمت هذه الغاية عن طريق تملك الأفراد للأرض وعملهم فيها فلا بأس . وإلا فللدولة حق انتزاعها من بين أيديهم ، واستغلالها جماعياً حتى تنىء أكبر دخل . ولا وجه لمن يزعم أنه حر التصرف مطلقه فيما يملك من الأرض ، ما دام هذا الفرد يعيش فى مجتمع إسلامى ، يكسب أفراده حقوقاً ، ويتطلب منهم واجبات[١] .

---

(١) ينتهى بهذا بحث استغلال الأرض فى الإسلام ، وسيتبعه قريبا إن شاء الله بحث جديد فى « سعر الفائدة » للأستاذ الباحث نفسه .

التحرير

حملة رسالة الإسلام الأولون

وما كانوا عليه من المحبة والتعاون على الحق والخير
وكيف شوه بعض المؤرخين والمغرضين جمال سيرتهم

للأستاذ السيد محب الدين الخطيب

روى الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه (ك ٦٢ ب ١) عن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خيرُ القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم (قال عمران بن حصين : فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا [1]) ثم إن بعدكم قوماً يَشهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، ويَنذرون ولا يفون ، ويظهر فيهم السِمَن » .

وروى البخارى مثله بعده عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم . وحديث ابن مسعود هذا عند الإمام احمد أيضاً فى مسنده ، وفى صحيح مسلم ، وفى سنن الترمذى . وروى مسلم مثله فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

فالهدى كل الهدى ، مما لم تر الإنسانية مثله — قبله ولا بعده — هو الذى تلقاه الصحابة عن معلم الناس الخير . وكان الصحابةُ به خيرَ أمة محمد صلى الله عليه وسلم بشهادته هو لهم ، وصدَق رسولُ الله . أما الذين يدّعون خلاف ذلك فهم الكاذبون .

إن الخير كل الخير فيما كان عليه أصحابُ رسول الله . وإن الدين كل الدين ما اتبعهم عليه صالحو التابعين ، ثم مشى على آثارهم فيه التابعون لهم بإحسان .

ومن أحطّ أكاذيب التاريخ زعْم الزاعمين أن أصحابَ رسول الله صلى الله

---

(١) وتحديد ذلك إلى نهاية الدولة الأموية . وقد يلتحق به زمن الخلفاء الأولين من بنى العباس . قال الحافظ ابن حجر فى تفسير هذا الحديث من (فتح البارى) ج ٧ ص ٤ : « اتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين — ممن يقبل قوله — من عاش إلى حدود سنة ٢٢٠ . وفى هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت الفلاسفة رءوسها ، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن ، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ، ولم يزل الأمر فى نقص إلى الآن (أى إلى زمن الحافظ ابن حجر ٧٧٣ — ٨٥٢) وظهر قوله صلى الله عليه وسلم (ثم يفشو الكذب) ظهوراً بيناً حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات » .

عليه وسلم كان يُضمِر العداوةَ بعضُهم لبعض . بل هم كما قال الله سبحانه عنهم في سورة الفتح — ٢٩ : « أشدّاءُ على الكفّار ، رُحماءُ بينهم » وكما خاطبهم ربنا في سورة الحديد ١٠ : « ولله ميراثُ السماوات والأرض . لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظمُ درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا ، وكلاًّ وعدَ اللهُ الحسنى » ولا يُخلفُ اللهُ وعده . وهل بعد قول الله عز وجل في سورة آل عمران ١١٠ : « كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس » يبقى مسلماً من يكذّب ربّه في هذا ، ثم يكذّب رسوله في قوله « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ... » ؟!

في صدر هذه الأمة حفظ الله كتابه بحَفَظته أميناً عن أمين ، حتى أدوا أمانة ربهم بعناية لم يسبق لها نظير في أمة من الأمم ، فلم يفرطوا في شيء من ألفاظ الكتاب على اختلاف الألسنة العربية في تلاوتها ونبرات حروفها ، وتنوع مدودها وإمالاتها ، إلى أدق ما يمكن أن يتصوره المتصور . فبر بذلك وعد الله عزوجل في سورة الحجر ٩ : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ومن صدر هذه الأمة تفرغ فريق من الصحابة فالتابعين وتلاميذهم لحمل أمانة السنة ، فكانوا يمحصون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذرعون أقطار الأرض ليدركوا الذين سمعوها من فم النبي صلى الله عليه وسلم فيتلقوها عنهم كما يتلقون أثمن كنوز الدنيا . بل كانت دار الإمارة في المدينة المنورة منتدى الفقهاء الأولين في صدر الإسلام يجتمعون إلى أميرهم مروان بن الحكم ، فإذا عُزيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنّة غير الذى كان معروفا عندهم أرسل مروان في تحقيق ذلك إلى من نسبت تلك السنة إليه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو أزواجه حتى يرد الحق إلى نصابه (انظر مسند الإمام أحمد : الطبعة الأولى ٦ ٢٩٩ و ٣٠٦) .

وبينما كان حفَظة القرآن وحمَلة السنة المحمدية يجاهدون في حفظ أصول الشريعة الكاملة ، كان آخرون من أبناء الصحابة وأبطال التابعين يحملون أمانة الإمامة والرعاية والجهاد والفتوح ، ويعملون على نقل الأمم إلى الإسلام يعرّبون ألسنها ، ويطهرون نفوسها ، ويسلكونها في سلك الأخوة الإسلامية لتتعاون معهم على توحيد الإنسانية تحت راية الهدى ، وتوجهها إلى أهداف السعادة .

وقد بارك الله لهؤلاء وأولئك في أوقاتهم ، وأتم على أيديهم في مائة سنة ما يستحيل على غيرهم — من أهل الطرائق والأساليب الأخرى — أن يعملوه في آلاف السنين .

هؤلاء هم الذين أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم خير أمته ،

وقد صح ما أخبر به ، فإن الإسلام إنما رأى الخير على أيديهم ، فبهم حفظ الله أصوله ، وبهم هدى الله الأمم . والبلادُ التى دخلت فى الإسلام على أيديهم نبغ منها فى ظل طريقتهم وعلى أساليبهم كبار الأئمة كالإمام البخارى والإمام أبى حنيفة والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك ، فكانت الأمم تُقبل على هذه الهداية بشغف وتقدير وإخلاص — لما ترى من إخلاص دُعاتها وصدقهم وإيثارهم الآجلة على العاجلة — والأمة التى تولت الدعاية لهذه الهداية تستقبل لمن نوابغ المهتدين بصدر رحب ، وتبوّىء المستأهلين منهم المكانة التى هم أهل لها .

هكذا كانت الحال فى البطون الثلاثة الأولى التى امتدحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفها بأنها خير أمته . أما العصور التى أتت بعدهم فان المسلمين يتميزون فيها بمقدار اتباعهم للصدر الأول فيما كان عليه من حق وخير . وهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : « مَثَل أمتى مثل المطر : لا يُدرَى أوله خير أم آخره » رواه الإمام أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه عن أنس ، ورواه ابن حبّان والإمام أحمد فى مسنده أيضاً من حديث عمار ، ورواه أبو ليلى فى مسنده عن على بن أبى طالب ورواه الطبرانى فى معجمه الكبير عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، كل هؤلاء الصحابة رووه عن النبى صلى الله عليه وسلم . فأمة محمد إلى خير فى كل زمان ومكان ما تحرّت الطريق الذى مشى فيه هداة القرون الثلاثة الأولى وتابَعوهم فيه . بل يرجى لمن يقيم الحق فى أزماننا كما أقامه الصحابة والتابعون فى أزمنتهم أن يبلغوا منزلتهم عند الله ويعدُّوا فى طبقتهم ، ولعلهم المعنيُّون بقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد والدارمى والطبرانى من حديث أبى جمعة قال : قال أبو عبيدة « يارسول الله أأحد خيرٌ منا ؟ أسلمنا معك ، وجاهدنا معك » فقال صلى الله عليه وسلم : « قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » وإسناده حسن . وصححه الحاكم . واحتجَّ الحافظ الأندلسى أبو عمر بن عبد البر بأن السبب فى كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء فى إيمانهم لكثرة الكفار فى الأرض ، وصبرهم على الهدى وتمسكهم به إلى أن عمَّ بهم فى أرجائها . قال ابن عبد البر: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصى والفتن ، كانوا أيضاً عند ذلك غرباء ، وزكت أعمالهم فى ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك . ويشهد له ما رواه مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء »

ومن غربة الإسلام بعد البطون الثلاثة الأولى ظهور مؤلفين شوّهوا التاريخ تقرُّباً

للشيطان أو الحكام ؛ فزعموا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا إخواناً فى الله ، ولم يكونوا رحماء بينهم ، وإنما كانوا أعداء يلعن بعضهم بعضا ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويتآمر بعضهم على بعض ، بغياً وعدوانا .

لقد كذبوا . وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى أسمى من ذلك وأنبل ، وكانت بنو هاشم وبنو أمية أوفى من ذلك لإسلامهما ورحمهما وقرابتهما وأوثق صلة وأعظم تعاوناً على الحق والخير .

حدثنى بعض الذين لقيتهم فى ثغر البصرة لما كنت معتقلا فى سجن الانجليز سنة ١٣٣٢ هـ أن رجلا من العرب يعرفونه كان يتنقل بين بعض قرى إيران فقتله القرويون لما علموا أن اسمه (عمر) . قلت : وأى بأس يرونه فى اسم (عمر) ؟ قالوا : حباً بأمير المؤمنين علىّ . قلت : وكيف يكونون من شيعة علىّ وهم يجهلون أن علياً سمى أبناءه بعد الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية بأسماء أصدقائه وإخوانه فى الله (أبى بكر) و (عمر) و (عثمان) رضوان الله عليهم جميعاً ، وأم كلثوم الكبرى بنت على بن أبى طالب كانت زوجة لعمر بن الخطاب ولدت له زيدا ورقية ، وبعد مقتل عمر تزوجها ابن عمها محمد بن جعفر بن أبى طالب ومات عنها فتزوجها بعده أخوه عون بن جعفر فماتت عنده . وعبد الله بن جعفر ذى الجناحين ابن أبى طالب سمى أحد بنيه باسم (أبى بكر) وسمى ابناً آخر له باسم (معاوية) ، ومعاوية هذا — أى ابن عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب — سمى أحد بنيه باسم (يزيد) . وعمر بن على بن أبى طالب كان من نسله عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب اشتهر بالمبارك العلوى وكان يكنى (أبا بكر) . والحسن السبط بن على بن أبى طالب سمى أحد بنيه (أبا بكر) وآخر باسم (عمر) وثالثاً باسم (طلحة) . وزين العابدين على بن الحسين سمى أحد أولاده باسم أمير المؤمنين (عمر) تيمناً وتبركا . ولعمر هذا ذرية مباركة منهم العلماء والشعراء والشرفاء . والحسن السبط كان مصاهرا لطلحة بن عبيد الله . وإن أم اسحاق بنت طلحة هى أم فاطمة بنت الحسين بن على . وسكينة بنت الحسين السبط كانت زوجا لزيد بن عمر بن عثمان بن عفان الأموى . وعقد لها قبله على الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموى . وأختها فاطمة بنت الحسين السبط بن على بن أبى طالب كانت زوجة عبد الله الأكبر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وكانت قبل ذلك زوجة الحسن المثنى ، وله منها جدّنا عبد الله المحض . وأم أبيها بنت عبد الله ابن جعفر ذى الجناحين بن أبى طالب كانت زوجة لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ثم تزوجها على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . وأم كلثوم بنت جعفر

ذي الجناحين كانت زوجة للحجاج بن يوسف وتزوجها بعد ذلك أبان بن عثمان بن عفان . والسيدة نفيسه المدفونة فى مصر (وهى بنت حسن الأنور بن زيد بن الحسن السبط) كانت زوجة لأمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وولدت له . وعلى الأكبر ابن الحسين السبط بن على بن أبى طالب أمه ليلى بنت مرة بن مسعود الثقفى وأمها ميمونة بنت أبى سفيان بن حرب الأموى . والحسن المثنى بن الحسن السبط أمه خولة بنت منظور الفزارية وكانت زوجة لمحمد بن طلحة بن عبيد الله ، فلما قتل عنها يوم الجمل ولها منه أولاد تزوجها الحسن السبط فولدت له الحسن المثنى . وميمونة بنت أبى سفيان بن حرب جدة على الأكبر بن الحسين بن علىّ لأمه . ولما توفيت فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم تزوج علىّ بعدها أمامة بنت أبى العاص بن الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس .

فهل يعقل أن هؤلاء الأقارب المتلاحمين المتراحمين الذين يتخيرون مثل هذه الأمهات لأنسالهم ومثل هذه الأسماء لفلذات أكبادهم ، كانوا على غير ما أراده الله لهم من الأخوة فى الإسلام ، والمحبة فى الله ، والتعاون على البر والتقوى ؟



لقد تواتر عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه كان يقول على منبر الكوفة : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » روى هذا عنه من أكثر من ثمانين وجها ، ورواه البخارى وغيره ، ولا يوجد تاريخ فى الدنيا : لا تاريخ الإسكندر المقدونى ، ولا تاريخ نابليون ، صحّت أخباره كصحة هذا القول — من الوجهة العلمية التاريخية — عن على بن أبى طالب . وكان كرم الله وجهه يقول : « لا أوتى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا ضربته حد المفترى » أى أن هذه الفرية توجب على صاحبها الحد الشرعى ، ولهذا كان الشيعة المتقدمون متفقين على تفضيل أبى بكر وعمر. نقل عبد الجبار الهمدانى فى كتاب (تثبيت النبوة) أن أبا القاسم نصر بن الصباح البلخى قال فى (كتاب النقض على ابن الراوندى) : سأل سائل شريك بن عبد الله فقال له : أيهما أفضل : أبو بكر أو على ؟ فقال له : أبو بكر . فقال السائل : تقول هذا وأنت شيعى ؟ فقال له : نعم : من لم يقل هذا فليس شيعيًّا . والله لقد رقى هذه الأعواد على فقال : « ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » فكيف نرد قوله ؟ وكيف نكذبه ؟ والله ما كان كذابا . وفى ترجمة يحى بن يعمر العدوانى من (وفيات الأعيان) للقاضى ابن خلكان أن يحى بن يعمر كان عداده فى بنى ليث لأنه حليف لهم ، وكان شيعيًّا من الشيعة الأولى القائلين بتفضيل أهل البيت من غير تنقيص لذى فضل من غيرهم . ثم ذكر قصة له مع الحجاج ، وإقامته الحجة على أن الحسن والحسين من

ذرية رسول الله بآية « ووهبنا له — أى لإبراهيم — إسحاق ويعقوب » إلى قوله تعالى : « وزكريا ويحيي وعيسى » . قال يحيي بن يعمر : وما بين عيسى وابراهيم أكثر مما بين الحسن والحسين ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فأقره الحجاج على ذلك وكبر فى نظره وولاه القضاء على خراسان مع علمه بتشيعه . وأنت تعلم أن الحجاج هو ما هو ، ومع ذلك فقد كان — مع فاضل متجاهر بشيعيته المعتدلة محتج للحق بالحق — أكثر إنصافاً من الكذبة الفجرة الذين جاءوا فى زمن السوء ، فصاروا كلما تعرضوا لأهل السابقة والخير فى الإسلام ، ومن فتحت أقطار الأرض على أيديهم ، ودخلت الأمم فى الإسلام بسعيهم ودعوتهم وبركتهم ، وكلهم من أهل خير القرون بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، وما منهم إلا من يتصل ببنى هاشم وآل البيت بالخؤولة والرحم والمصاهرة . وبالرغم من كل ذلك يتعرضون لسيرتهم بالمساءة كذباً وعدواناً ، ويرضون لأنفسهم بأن يكونوا أقل إنصافا وإذعانا للحق حتى من الحجاج بن يوسف . وإنى أخشى عليهم لو أنهم كانوا فى مثل مركز الحجاج بن يوسف لكانت فيهم كل مآخذ الصالحين عليه ، مع التجرد من كل مزاياه وفضائله وفتوحه التى بلغت تحت رايات كبار قواده وصغارهم إلى أقصى أقطار السند ، وغشيت جبال الهند وما صاقبها .

وإن خطبة أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فى نعت صديقه وإمامه خليفة رسول الله أبى بكر يوم وفاته من بليغ ما كان يستظهره الناس فى الأجيال الماضية . وفى خلافة عمر دخل على فى بيعته وكان من أعظم أعوانه على الحق ، وكان يذكره بالخير ويثنى عليه فى كل مناسبة ، وقد علمت أنه سمى ولدين من أولاده باسميهما ثم سمى ثالثا باسم عثمان لعظيم مكانته عنده ، ولأنه كان إمامه ما عاش ، ولولا أن عثمان — بعد أن أقام الحجة على الذين ثاروا عليه بتحريض أعداء الله رجال عبد الله بن سبأ اليهودى — منع الصحابة من الدفاع عنه حقنا لدماء المسلمين ، وتضييقاً لدائرة الفتنة ، ولما يعلمه من بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالشهادة والجنة ، لولا كل ذلك لكان علىّ فى مقدمة من فى المدينة من المهاجرين والأنصار الذين كانوا كلهم على استعداد للدفاع عنه ولو ماتوا فى سبيل ذلك جميعا . ومع ذلك فإن علياً جعل ولديه الحسن والحسين على باب عثمان وأمرهما بأن يكونا طوع إشارته فى كل ما يأمرهما به ولو أدى ذلك إلى سفك دمهما ، وأوعز إليهما بأن يخبرا أباهما بكل ما يحب عثمان أن يقوم له به . وكذبَ على الله وعلى التاريخ كلُّ ما اخترعه الكاذبون مما يخالف ذلك ويناقض وقوف الحسن والحسين فى بابه واستعدادهما لطاعته فى كل ما يأمر به . وقد كان من عادة سلفنا أن يدونوا أخبار تلك الأزمان منسوبة إلى رواتها ، ومن أراد معرفة قيمة كل خبر على طريقة (أنّى لك هذا ؟) فرجع إلى ترجمة كل راو فى كل سند لتمحصت له الأخبار ، وعلم

أن الأخبار الصحيحة التي يرويها أهل الصدق والعدالة التي تثبت أن أصحاب رسول الله كانوا كلهم من خيرة من عرفت الإنسانية من صفوة أهلها ، وأن الأخبار التي تشوّه سيرة الصحابة وتوهم أنهم كانوا صغار النفوس هي التي رواها الكذبة من المجوس الذين تسموا بأسماء المسلمين .

ولعلك تسألني : إذن ما هو أصل التشيع ؟ وهل لم يكن لعليّ شيعة في الصدر الأول ؟ وما هي وقعة الجمل ، وما الباعث على وقوعها ؟ وما هي حقيقة التحكيم ؟

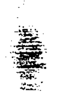
إن الجواب على هذه الأسئلة بالأسانيد التي ترتاح إليها قلوب المنصفين مهما اختلفت مشاربهم ومذاهبهم ، يحتاج إلى كتابة تاريخ المسلمين من جديد ، وإلى أخذه — عند كتابته — من ينابيعه الصافية ، ولا سيما في المواطن التي شوّهها أهل الذمم الخربة من تجار الأخبار . وأعيد هنا ما قلته غير مرّة ، وهو أن الأمة الإسلامية أغنى أمم الأرض بالمادة السليمة التي تستطيع أن تبني بها كيان تاريخها ، إلا أنها لا تزال أقل أمم الأرض عناية ببناء تاريخها من تلك الموادّ السليمة . والناس الآن بين قارىء لكتب قديمة أراد مؤلفوها أن يتداركوا الأخبار قبل ضياعها فجمعوا فيها كل ما وصلت إليه أيديهم من غث وسمين ، منبهين على مصادر هذه الأخبار وأسماء رواتها ليكون القارىء على بينة من صحيحها وسقيمها ، ولكن لبعد الزمن وجهل أكثر القراء بمراتب هؤلاء الرواة ودرجاتهم في الصدق والكذب ، وفي الوفاء للحق أو الميل مع الهوى ، تراهم لا يستفيدون من هذه المصادر ، ولا من الكتب التي اعتمدت عليها بلا تمحيص وتحقيق . وهنا لك كتب قديمة أيضا ولكنها دون هذه الكتب ، لأن أصحابها من أهل الهوى ، وممن لهم صبغات حزبية يصبغون أخبارهم بألوانها ، فهي أعظم ضرراً ، ولعلها أوسع من تلك انتشارا . أما الكتب الحديثة كمؤلفات جرجي زيدان ، والبحوث التي يستقيها حملة الأقلام من مؤلفات المستشرقين على غير بصيرة بدسائسهم ، فإنها ثالثة الأثافي وعظيمة العظائم ، ولذلك باتت هذه الأمة محرومة أغزر ينابيع قوّتها وهو الإيمان بعظمة ماضيها ، في حين أنها سليلة سلف لم ير التاريخ سيرة أطهر وأبهر وأزهر من سيرته .

إلا أن من نعم الله علينا عناية علماء الحديث بتحقيق أحوال رواة الأخبار ومبلغ أمانتهم في حملها ، وقد صنفوا في ذلك كتباً ومعاجم عظيمة النفع لمن يراجعها عند التأليف ، ولهم تحقيقات جليلة في جميع المسائل التي يترتب عليها اتجاه الحق في الحكم على الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام .

ومع أن كثيراً من أمهات الكتب النفيسة فقدت في كارثة هولاكو والحروب

الصليبية واكتساح الأندلس ، ثم بسبب انحطاط المستوى العلمى فى القرون الأخيرة ، إلا أن كثيراً من تحقيقات المحققين لا تزال منبثة فى مطاوى الكتب الإسلامية ، والأمل عظيم فى قيام نهضة جديدة لبعث ماضى هذه الأمة المجيد على ضوء ما تركه علماؤها من نصوص وتوجيهات .

وأعود بعد هذا إلى الأسئلة التى تقدَّمت آنفاً عن أصل الفتن والتشيّع ، فقد زعم الزاعمون لعلىّ — كرم الله وجهه — ما لم يكن له علم به : زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم عينه للخلافة بعده يوم استخلفه على المدينة وهو متوجه إلى الشام فى غزوة تبوك ، وقال له يومئذ « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبىَّ بعدى » . ورجال الحديث مختلفون فى درجة هذا الخبر من الصحة ، فبعضهم يراه صحيحاً ، وبعضهم يراه ضعيفاً ، وذهب الإمام أبو الفرج بن الجوزى إلى أنه موضوع مكذوب . ونحن إذا رجعنا إلى الظروف التى قالوا إنها لابست هذا الحديث نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يتوجه نحو تبوك أمر عليا بأن يتخلف فى المدينة ، وكان جميع رجالها والقادرين على الحرب من الصحابة قد خرجوا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فوجد على فى نفسه وقال للنبى صلى الله عليه وسلم : « أتجعلنى مع النساء والأطفال والضعفة ! » فقال له النبى صلى الله عليه وسلم تطييباً لنفسه : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ » أى فى استخلاف موسى أخاه هارون لما ذهب إلى الجبل ليعود بالألواح . فهذا الاستخلاف لم يكن له فى نظر سيدنا على كرم الله وجهه هذا المعنى الوهمى الذى اخترعه المتحزّبون فيما بعد ، بل هو على عكس ذلك كان يراه حرمانا له من مكانة أعلى وهى مشاركة إخوانه الصحابة فى ثواب الجهاد لتكوين الكيان الإسلامى المنشود . زد على ذلك أن هذا النوع من الاستخلاف لم ينفرد به على كرم الله وجهه ، بل تكرر من النبى صلى الله عليه وسلم استخلاف ابن أم مكتوم على المدينة نفسها ، وكان ابن أم مكتوم يتولى الإمامة بالناس فى المدينة مدة خلافته عليها . وقد ناظر كبار الشيعة فى هذا الحديث علامة العراق السيد عبد الله السويدى عندما جمعه بهم نادرشاه فى النجف سنة ١١٥٦ هـ فأفحمهم وخذل باطلهم كما ترى ذلك فيما دوّنه السويدى رحمه الله بقلمه عن هذه الواقعة وأثبتناه فى رسالة طبعناها بعنوان (مؤتمر النجف)



فالإمام علىّ كرم الله وجهه كان يعلم أن الخلافة الحقة هى التى انضوى فيها إلى إجماع إخوانه أصحاب رسول الله يوم قدّر الله لها بحكمته ما شاء وقضى فيها بعدله ما أراد . وما كان لمسلم من عامة المسلمين — فضلا عن مثل على فى عظيم مكانته فى الأولين والآخرين — أن يسخط قدر الله ، أو يتمرد على قضائه ، أو يرتضى غير الذى ارتضاه

إخوانه من الصحابة ، أو يداجى فى إجماعه معهم على ما فيه صلاح المسلمين . ومن الافتئات عليه والانتقاص من قدره والتشويه لجمال الإسلام وتاريخه الشك فى إخلاص على أو فى اغتباطه بما بايع عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق وصاحبيه بعده عمر وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين . ومن المزايا التى تفرّد بها علىّ وطبقته ممن ولى الخلافة أو دخل فى بيعتها فى الصدر الأول أنهم كانوا يرون ولاية هذا الأمر (واجبا) يقوم به الواحد منهم إذا وجب عليه كما يقوم بسائر واجباته ، ولا يرونها (حقا) لأحدهم يعادى عليه المسلمين ويعرض دماءهم للخطر والشر ليستأثر بها على غيره .

وجميع الوقائع — إذا جردت من زيادات أهل الأهواء — تدلّ على هذه المكانة السامية لعلىّ وإخوانه ، فلما شوهت الوقائع وأخبارها بما دسّه فيها المتزيدون من أكاذيب لا مصلحة فيها لعلىّ وآله ولا للاسلام ، كانت بها لعلى وأصحابه صورة قبيحة لا تنطبق على الحقيقة والواقع ، وظن المخدوعون بها أن تلك الطبقة الممتازة على جميع أمم الأرض بعفتها وطهارة نفوسها وترفعها عن الصغائر ، إنما كانت على عكس ذلك تتنازع كالأطفال والرعاع على توافه الدنيا وسفاسف العاجلة . فالخلافة كانت فى نظر الراشدين (عبئاً) يتولى الواحد منهم حمله بتكليف من المسلمين أداء للواجب ، ولم تكن عند أحد منهم (متاعا) ولا مأكلة حتى ينازع غيره عليها . ولما تآمرت المجوسية واليهودية على سفك دم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأبقى الله من حياته بقية يدبر فيها للمسلمين أمرهم بعده ، جعل الأمر شورى ، واقترح عليه بعض الصحابة أن يريح المسلمين من ذلك فيعهد إلى ابنه عبد الله بن عمر — ولم يكن عبد الله بن عمر دون أبيه فى علم أو حزم أو بعد نظر أو إخلاص لله ورسوله والمؤمنين — رفض عمر ذلك وقال : « بحسب آل الخطاب أن يليها واحد منهم ، فان كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان رزءاً فقد قمنا بنصيبنا فيه » . وعبد الله بن عمر نفسه عرضت عليه الإمامة فيمن عرضت عليهم عند مقتل عثمان فى ذى الحجة سنة ٣٥ فهرب منها كما كان يهرب منها طلحة والزبير وعلى ، ولم يتولها علىّ إلا قياماً بواجب ، ولم يستمدها من خرافات المتحزبين وسخافاتهم ، بل من إرادة الأمة فى ذينك اليومين (الخميس ٢٤ ذى الحجة والجمعة ٢٥ منه) كما أعلن ذلك على رؤوس الأشهاد وهو واقف على أعواد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعلىّ إلى تلك الساعة لم يكن له شيعة خاصة به يعرفها وتتصل به ، ولم يخطر قط على باله أن يجعل أحداً من الناس شيعة له ، لأنه هو نفسه وسائر إخوانه من الصحابة كانوا شيعة الإسلام الملتفة حول خلفاء نبيها صلى الله عليه وسلم أبى بكر ثم عمر ثم عثمان . ولو حدثته نفسه باتخاذ شيعة خاصة به غير جمهور الأمة الذى يتشيع للبيعة العامة لكان

ذلك نقضاً منه لما عقد عليه صفقة يمينه لإمامه ، وما طوق به عنقه من بيعة الإسلام لأصحابها . ولا شك أنه استمر على ذلك إلى عشية الخميس ٢٤ من ذى الحجة سنة ٣٥ للهجرة ، وكان أهلا لأن يستمر على ذلك بأمانة وإخلاص ، ولو لم يكن علىّ كذلك لما كان فى هذه المنزلة السامية عند الله والناس . ومن الثابت عنه فى عشية ذلك اليوم أنه كان يدافع الخلافة عن نفسه ، ويحاول أن يقنع أخاه طلحة بن عبيد الله — أحد العشرة المبشرين بالجنة — بأن يتولى هو هذا الأمر عن المسلمين ، بينما طلحة أيضا كان يدافعها عن نفسه ويحاول إقناع على بأن يكون هو حامل هذا العبء القائم عن المسلمين بهذا الواجب . وانظر الحوار بينهما فى ذلك كما رواه عالم من كبار علماء التابعين وهو الإمام محمد بن سيرين على ما أورده أبو جعفر الطبرى فى تاريخه (٦ : ١٥٦ طبعة مصر و ١ : ٣٠٧٥ طبعة هولندا) فيقول على لطلحة « ابسط يدك يا طلحة لأبايعك » فيقول له طلحة « أنت أحق ، فأنت أمير المؤمنين فابسط يدك » . وكاد الثائرون من جماعة الفسطاط والكوفة والبصرة يثبون بعلى وطلحة والزبير فيقتلونهم لهربهم من ولاية الأمر وتعففهم جميعا عن قبول الخلافة ، فانتهى الأمر بقبول على ، وارتقى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم التالى (الجمعة ٢٥ من ذى الحجة سنة ٣٥) فخطب خطبة حفظ لنا الطبرى نصها (٦ : ١٥٧ و ١ : ٣٠٧٧) فقال : « أيها الناس عن ملأ وأذن ، إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم . وقد افترقنا بالأمس على أمر (أى على البيعة له) فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد » وبذلك أعلن أنه لا يستمد الخلافة من شىء سبق ، بل يستمدها من البيعة إذا ارتضتها الأمة » .

ومن مزايا الطبقة الأولى فى الإسلام التى صحبت النبى صلى الله عليه وسلم وتأدبت بأدبه وتشبعت بسننه أنها كانت ترى (الاعتدال) ميزان الدين ، و (الرفق) جمال الإسلام ؛ لأن نبيها صلى الله عليه وسلم كان يقول لها « إن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه ، ولا نزع من شىء إلا شانه » وكان يقول لها : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » ويقول : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » ويقول : « إياكم والغلو فى الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فيه » . فلما نشأت الطبقة الثانية فى حياة الطبقة الأولى أدب الآباء بنيهم بهذا الأدب . ولكن أكثر ما كانت هذه الطريقة ناجحة فى الحجاز ونجد والشام . وكان فى ناشئة الكوفة والبصرة والفسطاط من أخذ بهذه الطريقة كما أن فيهم من شب على الغلو فى الدين . ومن أكبر المصائب على الإسلام فى ذلك الحين تسلط إبليس من أبالسة اليهود على الطبقة الثانية من المسلمين فتظاهر لها

بالإسلام وادعى الغيرة على الدين والمحبة لأهله ، وبدأ يرمى شبكته فى الحجاز والشام فلم تعلق بشىء بسبب تشبعهم بفطرة الإسلام فى اعتداله ورفقه ، وحذرهم من طرفى الإفراط والتفريط . فذهب الملعون يتنقل بين الكوفة والبصرة والفسطاط ويقول لحديثى السن وقليلى التجربة من شبابها : عجباً لمن يزعم أن عيسى يرجع ويكذِّب بأن محمداً يرجع . وقد قال الله عز وجل « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . وكان يقول لهؤلاء الشبان « كان فيما مضى ألف نبى ولكل نبىّ وصىّ وإن علياً وصىُّ محمد » ويقول لهم « محمد خاتم الأنبياء ، وعلىّ خاتم الأوصياء » ثم يقول لهم محرضاً على عثمان وكان ذلك فى أواخر خلافة عثمان سنة ٣٠ « ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ، وممن يثب على علىّ وصى رسول الله وينتزع منه أمر الأمة » ويقول لهم « إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهنالك علىّ وصى رسول الله فانهضوا لحركوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس » . . .

إن هذا الشيطان هو عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء ، وكان يسمى ابن السوداء ، وكان يبث دعوته بخبث وتدرج ودهاء ، واستجاب له ناس من مختلف الطبقات ، فاتخذ من بعضهم دعاة فهموا أغراضه وعولوا على تحقيقها . واستكثر أتباعه بآخرين من البلهاء الصالحين المتشددين فى الدين المتنطعين فى العبادة ممن يظنون الغلو فضيلة والاعتدال تقصيراً . فلما انتهى ابن سبأ من تربية نفر من الدعاة الذين يحسنون الخداع ويتقنون تزوير الرسائل واختراع الأكاذيب ومخاطبة الناس من ناحية أهوائهم ، بث هؤلاء الدعاة فى الأمصار — ولا سيما الفسطاط والكوفة والبصرة — وعنى بالتأثير على أبناء الزعماء من قادة القبائل وأعيان المدن الذين اشترك آباؤهم فى الجهاد والفتح فاستجاب له من بلهاء الصالحين وأهل الغلو من المتنطعين جماعات كان على رأسهم فى الفسطاط الغافقى بن حرب العكى وعبد الرحمن بن عديس البلوى التجيبى الشاعر وكنانة بن بشر بن عتاب التجيبى وسودان بن حمران السكونى وعبد الله بن زيد بن ورقاء الخزاعى وعمرو بن الحمق الخزاعى وعروة بن النباع الليثى وقُتيرة السكونى ، وكان على رأس من استغواهم ابن سبأ فى الكوفة عمرو بن الأصم وزيد بن صوحان العبدى والأشتر مالك بن الحارث النخعى وزياد بن النضر الحارثى وعبد الله بن الأصم . ومن البصرة حرقوص بن زهير السعدى وحُكيم بن جبلة العبدى وذريح بن عباد العبدى وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسى وابن المحرش بن عبد عمرو الحنفى . أما المدينة فلم يندفع فى هذا الأمر من أهلها إلا ثلاثة نفر وهم : محمد بن أبى بكر ومحمد

ابن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبدشمس وعمار بن ياسر . ومن دهاء بن سبأ ومكره أنه كان يبث فى جماعة الفسطاط الدعوة لعلىّ (وعلى لا يعلم ذلك)، وفى جماعة الكوفة الدعوة لطلحة وفى جماعة البصرة الدعوة للزبير . وليس هنا موضع تحليـــل نفسيات المخدوعين بدعوة هذا الشيطان ، ولا نريد أن ننقل ذم على وطلحة والزبير لهم وما قالوه فيهم يوم نزل الثائرون فى ذى خُشُب والأعوص وذى المروة ، وكيف زور ابن سبأ وشياطينه رسالة على لسان على بدعوة جماعة الفسطاط إلى الثورة فى المدينة فلما واجهوا علياً بذلك وقالوا له أنت الذى كتبت إلينا تدعونا فأنكر عليهم أنه كتب لهم وكان ينبغى أن يكون ذلك سببا ليقظتهم ويقظة على أيضا إلى أن بين المسلمين شيطانا يزور عليهم الفساد لخطة مرسومة تنطوى على الشر الدائم والشرر المستطير ، وكان ذلك كافيا لإيقاظهم إلى أن هذه اليد الشريرة هى التى زوّرت الكتاب على عثمان بدليل أن حامله كان يتراءى لهم متعمداً ثم يتظاهر بأنه يتكتم عنهم ليثير ريبتهم فيه ، فراح المسلمون إلى يومنا هذا ضحية سلامة قلوبهم فى ذلك الحين . إن دراسة هذا الموضوع الآن على ضوء القرائن القليلة التى بقيت لنا بعد مضى ثلاثة عشر قرنا تحتاج إلى من يتفرّغ لها من شباب المسلمين ، وسيجدون مستندات الحق فى تاريخهم كافية لوضع كل شىء فى موضعه إن شاء الله .

فأول فتنة وقعت فى الإسلام هى فتنة المسلمين بمقتل خليفتهم وصهر نبيهم الإمام العادل الكريم الشهيد ذى النورين عثمان بن عفان رضوان الله عليه . وقد علمت أن الذين قاموا بها وجنوا جنايتها فريقان : خادعون ومخدوعون . وقد وقعت هذه الكارثة فى شهر الحج ، وكانت عائشة أم المؤمنين قد خرجت إلى مكة مع حجاج بيت الله ذلك العام ، فلما عادت ورأت ما حدث فى مدينة الرسول أحزنها بغى البغاة على خليفة نبيهم ، وعلمت أن عثمان كان حريصاً على تضييق دائرة الفتنة ، فمنع الصحابة من الدفاع عنه ، بعد أن أقام الحجة على الثائرين فى كل ما ادّعوه عليه وعلى عماله ، وكان الحق معه فى كل ذلك وهم على الباطل ، وكان هو المثل الإنسانى الأعلى فى العدل وكرم النفس والنزول على قواعد الإسلام واتباع سننه ، وكان فى مدة خلافته أكرم وأصلح وأكثر إنصافا وقياما بالحق واتباعا للخير مما كان هو عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . واجتمعت عائشة بكبار الصحابة ، وتداولت الرأى معهم فيما ينبغى عمله — وقد عرف القراء ما كانوا عليه من نزاهة ، وفرار من الولاية ، وترفع عن شهوات النفس — فرأوا أن يسيروا مع عائشة إلى العراق ليتفقوا مع أمير المؤمنين علىّ على الاقتصاص من السبأيين الذين اشتركوا فى دم عثمان وأوجب الإسلام عليهم الحدّ فيه . ولم يكن يخطر

على بال عائشة وكل الذين كانوا معها — وفى مقدمتهم طلحة والزبير المشهود لهما من النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة — أنهم سائرون ليحاربوا أحداً ، ولم يكن يخطر ببال علىّ أن هؤلاء أعداء له وأنهم حرب عليه . وكل ما فى الأمر أن أولئك المتنطعين الغلاة الذين انخدعوا بدعوة عبد الله بن سبأ واشتركوا فى قتل عثمان انغمروا فى جماعة على ، وكان فيهم الذين تلقنوا الدعوة له وتتلمذوا على ذلك الشيطان اليهودى فى دسيسة أوصياء الأنبياء ودعوى خاتم الأوصياء ، فجاءت عائشة ومن معها للمطالبة بإقامة الحد على الذين اشتركوا فى جناية قتل عثمان ، وما كان علىّ — وهو ما هو فى دينه وخلقه — ليتأخر عن ذلك ، إلا أنه كان ينتظر أن يتحاكم إليه أولياء عثمان . وقبل أن يتفق الفريقان على ذلك شعر قتلة عثمان بأن الدائرة ستدور عليهم ، وهم على يقين بأن عليا لن يحميهم من الحق عند ظهوره ، فأنشب هؤلاء حرب الجمل ، فكانت الفتنة الثانية بعد الفتنة الأولى . قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (١٣ : ٤١ — ٤٢ و ٤٤) معتمداً على كتاب (أخبار البصرة) لعمر بن شبة وعلى غيره من الوثائق القديمة التى جاء فيها عن ابن بطال قول المهلب : « . . . إن أحداً لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا علياً فى الخلافة ، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة . وإنما أنكرت هى ومن معها على علىّ منعه من قتل قتلة عثمان وترك الاقتصاص منهم . وكان علىّ ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه ، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان اقتص منه . فاختلفوا بحسب ذلك ، وخشى من نُسب إليهم القتل أن يصطلحوا على قتلهم ، فأنشبوا الحرب بينهم (أى بين فريقى عائشة وعلىّ) إلى أن كان ما كان »

ونجح قتلة عثمان فى إثارة الفتنة بوقعة الجمل ، فترتب عليها نجاتهم وسفك دماء المسلمين من الفريقين . وإنك لتجد الأسماء التى سجلها التاريخ فى فتنة عثمان بقى يتردد كثير منها فى وقعة الجمل ، وفيما بين الجمل وصفين ، ثم فى وقعة صفين وحادثة التحكيم . وفى هذه الحادثة الأخيرة اتسعت دائرة الغلو فى الدين ، فكثر المصابون بوبائه وتفننوا فى مذاهبه ، إلى أن انتهى أمرهم بانشقاق الخوارج عن على ، وتميز فريق من المتخلفين مع على باسم الشيعة . ولم يقع نظرى على اسم للشيعة فى حياة على كلها إلا فى هــذا الوقت (سنة ٣٧ هـ) ومن الظواهر التى تسترعى الأنظار فى تاريخ هذه الفترة أن الغلاة من الفريقين — فريق الشيعة وفريق الخوارج — كانوا سواء فى الحرمة للشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . تبعا لما كان عليه أمير المؤمنين على نفسه ، وما كان يعلنه على منبر الكوفة من الثناء عليهما والتنويه بفضلهما . أما الخوارج فإنهم والأباضية ظلوا على ذلك لم يتغيروا أبداً ، فأبو بكر وعمر كانا عندهم

أفضل الأمة بعد نبيها ، استرسالا منهم فيما كانوا عليه مع على قبل أن يفارقوه .
وأما الشيعة فإنهم عند ماجددوا بيعتهم لعلى بعد خروج الخوارج إلى حروراء والنهروان قالوا له أولا : « نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت » . فشرط لهم كرم الله وجهه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أى أن يوالوا من والى على سنة رسول الله ويعادوا من عادى على سنته صلى الله عليه وسلم ، فجاءه ربيعة بن أبى شداد الخثعمى — وكان صاحب راية خثعم فى جيش على أيام الجمل وصفين — فقال له على : « بايع على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم » فقال ربيعة : « وعلى سنة أبى بكر وعمر » فقال على : « لو أن أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونا على شىء من الحق » أى أن سنة أبى بكر وعمر إنما كانت محمودة ومرغوباً فيها لأنها قائمة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله . فبيعتكم الآن على كتاب الله وسنة رسوله تدخل فيها سنة أبى بكر وعمر .

هكذا كان أمير المؤمنين على من أخويه وحبيبيه خليفتى رسول الله أبى بكر وعمر فى حياته كلها ، وهكذا كانت شيعته الأولى : من خرج منهم عليه ، ومن جدد البيعة له بعد التحكيم .

وحكاية التحكيم هذه كانت مادة دسمة للمغرضين من مجوس هذه الأمة أتاحت لهم دس السموم فى تاريخنا على اختلاف العصور . وأول من شمر عن ساعديه للعبث بها وتشويه وقائعها أبو مخنف لوط بن يحيى ، ثم خلف خلفٌ بعد أبى مخنف بلغوا من الكذب ما جعل أبا مخنف فى منزلة الملائكة بالنسبة إلى هؤلاء الأبالسة . وأبو مخنف معروف عند ممحصى الأخبار وصيارفة الرجال بأنه إخبارى تالف لا يوثق به . نقل الحافظ الذهبى فى (ميزان الاعتدال) عن حافظ إيران ورأس المحققين من رجالها أبى حاتم الرازى رحمه الله أنه تركه وحذّر الأمة من أخباره ، وأن الدارقطنى أعلن ضعفه ، وأن ابن معين حكم عليه بأنه ليس بثقة ، وأن ابن عدى وصفه بأنه « شيعى محترق » .

ومن براعة هؤلاء المغرضين فى تحريف الوقائع ودس أغراضهم فيها ، وتوجيهها بحسب أهوائهم لا كما وقعت بالفعل ، أنهم كانوا يعمدون إلى حادثة وقعت بالفعل فيوردون منها ما كان يعرفه الناس ، ثم يلصقون بها لصيقاً من الكذب والإفك يوهمون أنه من أصل الخبر ومن جملة عناصره ، فيأتى الذين بعدهم فيجدون الخبر القديم مختصراً فيحكمون عليه بأنه ناقص ، ويقولون « من حفظ حجة على من لم يحفظ » ويتناولون الخبر بما لصق به من لصيق مفترى ، حتى تكون الرواية الجديدة وما فى

بطنها من جنين الإثم هي المتداولة بين الناس . وقد يعمد هؤلاء المغرضون إلى موهبة من مواهب النبوغ عرف بها أحد أبطال التاريخ الإسلامى وعظماء الدعاة الفاتحين ، ولم يعرف عنه استعمالها إلا فى سبيل الحق والخير ، فيطلعون على الناس بأكاذيب يرتبونها على تلك الموهبة ، ويوهمون أن رجل الحق والخير الذى حلاه الله بتلك الموهبة ولم يستعملها إلا فى نشر دين الله وتوسيع نطاق الوطن الإسلامى ، قد انقلب بزعمهم مع الزمن ، وسخر نبوغه للباطل والشر : فإذا أخذ المحققون فى تمحيص ذلك وتحرى مصادر هذه التهم التى لا تلتئم مع ما تقدمها من سيرة ذلك البطل المجاهد وجدوها من بضاعة الكذابين ومفترياتهم ، ولكن قلما يجدى ذلك بعد أن يكون « قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً »

هذا أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمى بطل أجنادين ، وفاتح مصر وأول حاكم ألغى نظام الطبقات فيها ، وكان السبب الأول فى عروبتها وإسلام أهلها وشريك مسلميها فى حسناتهم من زمنه إلى الآن لأنه الساعى فى دخولهم فى الإسلام — هذا الرجل العظيم عرفه التاريخ بالدهاء ونضوج العقل وسرعة البادرة ، وكان نضوج عقله سبب انصرافه عن الشرك ترجيحاً لجانب الحق واختياراً لما دله عليه دهاؤه من سبيل الخير ، فجاء مزيفو الأخبار من مجوس هذه الأمة وضحاياهم من البلهاء فاستغلوا ما اشتهر به عمرو من الدهاء استغلالا تقر به عين عبد الله بن سبأ فى طبقات الجحيم .

يقول قاضى قضاة أشبيلية ؛ بالأندلس الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى (المولود فى أشبيلية سنة ٤٦٨ والمتوفى بثغر الإسكندرية سنة ٥٤٣) فى الجزء الثانى من كتابه (العواصم من القواصم) ص ١٣٧ بعد أن ذكر ما شاع بين الناس فى مسألة تحكيم عمرو وأبى موسى ، وما زعموه من أن أبا موسى كان أبله وأن عمراً كان محتالا : « هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه حرف قط ، وإنما هو شىء أخبر عنه المبتدعة ، ووضعته التاريخية للملوك فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصى الله والبدع . وإنما الذى روى الأئمة الثقات الأثبات أنهما — يعنى عمراً وأبا موسى — لما اجتمعا للنظر فى الأمر ، فى عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر ، عزل عمرو معاوية. ذكر الدار قطنى بسنده عن حضين بن المنذر أنه لما عزل عمرو معاوية جاء (أى حضين) فضرب فسطاطه قريبا من فسطاط معاوية ، فبلغ نبأه معاوية ، فأرسل إليه فقال : إنه بلغنى عن هذا (يعنى عمرو بن العاص) كذا وكذا (يعنى اتفاقه مع أبى موسى على عزل الأميرين المتنازعين حقناً لدماء المسلمين ورداً للأمر إليهم يختارون من يكون به صلاح أمرهم) . فاذهب فانظر ما هذا الذى بلغنى عنه — قال حضين — : فأتيته فقلت :

أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا ، والله ما كان الأمر على ما قالوا ، ولقد قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر ؟ قال : أرى أنه في النفر الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ فقال : إن يستعن بكما ففيكما معونة ، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما . قال : فكانت هي التي فتل معاوية منها نفسه . فأتيته (أي أن حضين أتى معاوية) فأخبرته أن الذي بلغه عنه كما بلغه أي أن الذي بلغ معاوية من أن عمراً . وأبا موسى عزلاه هو كما بلغه ، وأنهما رأيا أن يرجع في الاختيار من جديد إلى النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . ثم ذكر القاضي أبو بكر ابن العربي بقية خبر الدار قطني عن إرسال معاوية رسولا — وهو أبو الأعور الذكواني — إلى عمرو بن العاص يعاتبه ، وأن عمراً أتى معاوية وجرى بينهما حوار وعتاب ، فقال عمرو لمعاوية : « إن الضَّجُور قد تحتلب العلبة » وهو مثل معناه أن الناقة الضجور التي لا تسكن للحالب قد ينال الحالب من لبنها ما يملأ العلبة . فقال له معاوية « وتربذ الحالب فتدق أنفه وتكفأ إناءه » .

فرواية الدار قطني هذه — وهو من أعلام الحديث — عن رجال عدول معروفين بالتثبت ، ويقدرون مسئولية النقل ، هي التي تتناسب مع ماضي عمرو وأبي موسى وأيامهما في الإسلام ومكانتهما من النبي صلى الله عليه وسلم وموضعهما من ثقة الفريقين بهما واختيارهما من بين السادة القادة المجربين . وأما الافتئات على أبي موسى والايهام بأنه كان أبله فهو أشبه بالرقعة الغريبة في ردائه السابغ الجميل . يقول القاضي أبو بكر بن العربي : « وكان أبو موسى رجلا تقيا ثقفاً فقيهاً عالماً أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن مع معاذ ، وقدمه عمر بن الخطاب وأثنى عليه بالفهم . وزعمت الطائفة التاريخية أنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعا في القول » ثم رد هذه الأكاذيب وأحال في تفصيل الرد على كتاب له اسمه (سراج المريدين) .

وبعد فإن صحائف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت كقلوبهم نقاء وسلامة وطهراً ، وما نتمناه من تمحيص التاريخ أول ما يشترط له فيمن يتولاه أن يكون سليم الطوية لأهل الحق والخير ، عارفا بهم كما لو كان معاصراً لهم ، بارعا في التمييز بين حملة الأخبار ومن عاش منهم بالكذب والدس والهوى ، ومن كان منهم يدين لله بالصدق والأمانة والتحرز عن تشويه صحائف المجاهدين الفاتحين الذين لو لاهم لكنا نحن وأهل أوطاننا جميعاً لا نزال كفرة ضالين .

خاطرة

شكوى ...

« فى صدورنا جذوة من الأمل لايزيدها ضرب الرياح إلا توهجا ، غير أن عتمة الليل تبدو — أحيانا — فى نور هذه الجذوة الخافق شديدة قاسية »

نحن نعيش فى مستنقع قذر ، فى عالم موبوء ملوث . . . امتدت يد الشيطان إلى الأنفس والرؤوس : فالآراء سقيمة والمشاعر سقيمة والأوضاع سقيمة وكل ما يحيط بالإنسان يبعث على الألم . . .

ترى هل سنستطيع فى هذه المباءة أن نقيم بناء الحق ؟ . . . أن نقيمه على أساس . . . وأن نراه يوما سامقا مرفرف الراية مشرق الجنبات . . . ؟ !

من يستطيع ؟ !

أنت وحدك يا رب ، أنت يا رب الأنفس ، ومالك هذا الملك ، ومنزل هذا الكتاب .

نحن وحدنا لا نستطيع . . . إن العين لتكل فى هذه الزوبعة من الظلام ، وإن أنفاسنا تقطعها هذه الزلازل فى الشرق والغرب . . . وهذه الهزات الأليمة فى مجتمعنا المنكوب . . . هذه الرؤوس الخاوية لا تدرى شيئا ، وهذه الأنفس العابثة الشاردة لا تبالى بحق أو باطل ، وهذه الوحوش البشرية الوالغة فى الدم الحرام ، وهؤلاء (الطيبون) « بلغة العصر ! » الذين يُعبث بهم ، وتُستغل غفلتهم وجهلهم ، ولا يدرون أين هم ، ولا ماذا يراد بهم . ؟ مَنْ مِنْ بين هؤلاء جميعا سيدركه سر الله فيقيمه غازيا كريما ، أو يحطمه مجرما لئيما عنيداً . . .

هى معركة رهيبة لم تبدأ بعد ، ولا تزال الأيام تصنع جندها عن يمين وشمال . . . يا عين الله ! ماذا ترين ؟

اغفرى زلاتنا وعثراتنا . . . استرى عوراتنا . . . باركى هذا الخير فى نياتنا . . . ولا تتخلى عنا يا عين من لا ينام ....

ليس شكًّا يا عالم السر والنجوى . . . ولكنه شكوى

« اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان »

الحركة الوهابية

مالها، وما عليها

للأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

هى حركة عربية صرف نشأت فى قلب جزيرة العرب . وإذا كان تاريخ نشأتها يرجع إلى أواسط القرن الثامن عشر ؛ فإنها لم تصبح قوة يرهب خطرها إلا منذ عام ١٧٩٠ بعد أن تم الاستيلاء على نجد ، ثم أخذت تدق على أبواب الأقطار المجاورة وهى العراق والشام والأحساء والحجاز ونجران . ولم تصبح قوة « دولية » تنذر بنتائج دينية وسياسية خطيرة ، وتكاد تهدد بقلب النظام القائم فى العالم الإسلامى كله إلا خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر . أما قبل ذلك فكانت حركة محصورة داخل حدود الجزيرة « محلية » لا يكاد العالم الخارجى يعرف أنباءها ، أو يدرك حقيقة مبادئها .

مؤسس الدعوة :

ومؤسس هذه الدعوة هو « محمد بن عبد الوهاب » ولد فى بلدة « العُيينة » من إقليم العارض بنجد عام ١٧٠٣ . وتلقى العلم فى موطنه ، ثم رحل فى سبيل الدراسة والمعرفة إلى المدينة ، ومكة ، والأحساء ، والبصرة، وبغداد ، ودمشق، وقيل فارس أيضاً ؛ فاكتسب من سياحاته العديدة علماً غزيراً ، وخبرة واسعة . ووقف على أحوال العالم الإسلامى، ثم قارن بين ما آلت إليه حاله وما كوّنه فى ذهنه من أفكار عن المثل الدينية الصحيحة ؛ فكانت نتيجة ذلك هذا المذهب الجديد الذى عرف به وحمل اسمه ، وكان سبباً فى خلق هذه الحركة الإصلاحية الخطيرة وقد توفى فى سنة ١٧٨٧ .

حقيقة المذهب :

والمذهب الوهابى ليس « مذهباً » بالمعنى الصحيح : فهو لا يعدو أن يكون « تفسيراً » أو وجهة نظر معينة فى فهم بعض نواحى الدين الإسلامى ، وهو لا يخرج فى مجموعه عن حدود المذاهب السنية المعترف بها . فالوهابيون يتبعون فى فروع الأحكام —

أى فى الفقه — مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وفى العقائد : مذهب أهل السنة ، وبخاصة كما قررها وفسرها الإمام السنى العلامة « ابن تيمية » . « وابن تيمية » هو الأستاذ المباشر لابن عبد الوهاب — وإن فصل بينهما أربعة قرون — فقد قرأ كتبه وتأثر كل التأثر بتعاليمه ؛ ولم تكن دعوته فى حقيقتها إلا تجديداً لآرائه ، وتحقيقاً لمبادئه

المبادىء الأساسية :

وجوهر الدعوة الوهابية ، أو المبادىء الأساسية التى تدعو إليها هى : تنقية معنى التوحيد من كل شوائب الشرك ظاهرة وخفية ، وإخلاص الدين لله وحده . ويتفرع على ذلك إنكار الشفاعة والوسيلة فى هذه الحياة الدنيا ويعد من خفى الشرك : اعتقاد أن الموتى لهم تصرف ، أو أنهم ينفعون أو يضرون ، والالتجاء إليهم ، والاستغاثة بهم ، وتعظيم قبورهم وبناء الأضرحة والقباب عليها . ومما يدخل فى هذا الباب أيضاً : عدم الغلو فى تمجيد الرسول صلى الله عليه وسلم بما يخرجه عن حدود الطبيعة البشرية ، وتحديد معنى « الرسالة » التى كلف بإبلاغها .

ثم هم يحاربون كل أنواع المنكرات ، وينبذون كل البدع التى دخلت فى العصور المتأخرة ، وليست من الدين فى شىء ، ويعلنون عدم مشروعية المكوس والمظالم التى يفرضها الولاة ، ويدعون إلى إبطال التعامل بالربا ، ويحرمون شرب الدخان ، ويثورون على كل مظاهر الترف التى تؤذن بالانحلال ، وتتنافى مع معانى الرجولة .

ومن حيث مصادر العقيدة : يرون الرجوع إلى مذهب السلف فى فهم الدين ، وتفسير آيات القرآن ، وأحاديث الرسول . فهم فى الحقيقة ينادون بالرجوع بالدين إلى مذهب البساطة أو الفطرة ، ويكرهون التعقيدات التى أدخلها « المتكلمون » و « الفلاسفة » و « الصوفية » . ومن أجل ذلك فهم يعتبرون الكتاب والسنة هما دستور الشريعة الوحيد ، ولا يقرون الالتجاء إلى غيرهما . ويذهبون إلى أن « باب الاجتهاد » مفتوح ، وأن لكل مسلم الحق فى أن « يجتهد » لفهم دينه ، وعليه أن يعد نفسه ليكون أهلا لذلك .

ثم هم يرون ضرورة القيام بواجب « الجهاد » .

ولكنهم فى نفس الوقت يتوسعون فى معنى « الكفر » ؛ فيرون أن العقيدة وحدها لا تكفى للحكم لصاحبها بالإيمان ، وأنها يجب أن تكون معززة بالعمل .

وأن كل عمل يتضمن أى معنى من معانى الشرك — ولو عن غير قصد من صاحبه — يفسد عقيدته ، ولا يجوز أن يعد فاعله مؤمناً . وبناء على ذلك يمكن أن تندرج طوائف كبيرة من المسلمين تحت هذا الحكم ، فيكونوا ممن تجب محاربتهم أو إعلان الجهاد ضدهم .

موجز تاريخ الحركة :

أما موجز تاريخ الحركة فهو أن الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » بعد أن استقر به النوى فى بلدته ، قام يدعو إلى مذهبه ، فاضطهده أميرها وهو من آل « معمر » بإيعاز من رئيس « بنى خالد » فى الأحساء ؛ فاضطر إلى الهجرة ، وقدم إلى « الدرعية » فلقيه أميرها « محمد بن سعود » فاعتنق مذهبه ، وتعاهد الرجلان على أن يعملا معاً لنصرة هذا الدين الحق. وكانت هذه الهجرة حوالى سنة ١٧٤٠ . وقد أوفى « ابن سعود » بعهده فظل يجاهد من أجل الفكرة حتى مات سنة ١٧٦٦ فخلفه ابنه « عبد العزيز » .

ويحسن أن نشير هنا إلى أن « ابن سعود » كان قبل وفود الشيخ عليه أميراً كغيره من أمراء العرب : أى كأمير « بنى خالد » بالأحساء أو « المنتفق » فى العراق أو « معمر » فى العيينة أو « شمر » فى الشمال أو غيرهم . ولكن الله أراد له الفتح والغلبة بقبول هذه الدعوة . وقد رأى « عبد العزيز » أن يوطد الدعوة فى موطنها أولا فعمل على ضم إقليم « نجد » وأخذ يرسل الرسل لنشر الدعوة بين قبائل العرب ، وفى العراق والحجاز وحوالى عام ١٧٩٠ أصبحت الدولة السعودية أقوى دولة فى قلب جزيرة العرب ، وبدأت تتطلع إلى الفتح والانسياح عبر الحدود : ففى عام ١٧٩٣ تغلب عبد العزيز على « الأحساء » وأزال بنى خالد عنها ، وظل يرسل الغارات تلو الغارات لغزو ضواحى العراق والشام ؛ فأخذت عشائر العراق ووالى بغداد أيضاً « سليمان باشا الكبير » تحس بالخطر من جانب الصحراء ، وكذلك الشريف « غالب » بن الشريف « مساعد » أمير مكة والحجاز . وبعث السلطان نفسه من « الإستانة » يحث واليه على بغداد للاستعداد لمجابهة هذا الخطر .

فبدأت هذه القوات تتحرك : ففى عام ١٧٩٧ جرد « ثويني » شيخ « المنتفق » حملة اجتاز بها حدود « الأحساء » وكاد يستولى على معظم مدنها . ولكن عبداً زنجياً من حاشيته اغتاله فى الطريق ؛ فتفرقت الحملة شذر مذر .

وفى نفس السنة قام « غالب » بحملة من جهته فهزم شر هزيمة ، واضطر إلى

التراجع وعقد الهدنة ؛ على أن يأذن لآل «سعود» والوهابيين بالحج ، وتظاهر بإطاعة أوامرهم . وفى العام التالى ١٧٩٨ نهض « سليمان باشا » والى بغداد نفسه لحمل العبء ، فأرسل حملة كبيرة تحت قيادة وكيله على باشا « الكخيا » ولكنها لاقت الأهوال فى الصحراء : من العواصف والظمأ والجوع وغارات البدو المفاجئة ؛ فأجبر على التقهقر ، ورضى من الغنيمة بالإياب ، واكتفى بعقد هدنة « شفوية » بينه وبين الأمير «سعود» ابن عبد العزيز كان أهم شروطها الإذن للعراقيين بالحج ، ثم عاد إلى بغداد سنة ١٧٩٩

وفى عام ١٨٠٠ تمكن عبد العزيز من بسط نفوذه على « البحرين » وتوجه سعود فى نفس العام إلى « مكة » لأداء فريضة الحج — وهكذا حين بدأ القرن التاسع عشر كانت الدولة السعودية قوة هائلة — وأخذ الولاة فى أطراف الجزيرة يوجسون خيفة من أمرها ، ويتوقعون شرا من تقدمها . وفى عام ١٨٠١ وقعت هذه الحادثة المؤسفة وهى إغارة الوهابيين على « كربلاء » وانتهاب ما فى ضريح « الحسين » من الهدايا والنفائس ، وقتل عدد من الأنفس . فكان لهذه الحادثة دوى كبير فى جميع أنحاء العراق ، وفى دوائر الشيعة ، وفى العالم الإسلامى قاطبة . وكانت الدعوة ضد الوهابيين نشيطة وقوية ؛ فأتى هذا الحادث فزاد فى شعور الكراهية والعداوة ضدهم . وفى عام ١٨٠٣ تمكن « عبد العزيز » من فتح مكة غير أن فرحته لم تتم ؛ فقد اغتاله بعد أشهر قليلة أحد رجال الشيعة من الفرس إنتقاما لما فعله « بكربلاء » وحينئذ تولى ابنه «سعود» وكان هو العضد الأيمن لأبيه فى حياته ، وعلى يديه تم أكثر الفتح ، ويعد أكبر رجال هذه الأسرة ، وفى عهده بلغت الدعوة الوهابية أوجها ، والدولة السعودية ذروتها . فأعاد الكرة على مكة سنة ١٩٠٥ ودخلها منتصرا ، ثم استولى على المدينة أيضاً ، فصار سيد الحجاز كله . وهكذا أصبح خادم « الحرمين الشريفين » بدل سلطان « الإستانة » والتحكم فى كل قبائل الحج التى ترد من جميع نواحى العالم الإسلامى ، وصار معظم الجزيرة الآن تحت قبضته ، ولم يبق إلا أن يتطلع لوثبة أخرى خارج حدودها : فى العراق أو فى الشام . هذا هو موجز تاريخ الحركة الوهابية منذ بدء قيامها إلى نجاحها فى هذا الدور الأول .

التقدير والأثر التاريخى :

والحكم العام على هذه الحركة : هو أنها حركة دينية إصلاحية . ولكن أخذ عليها أنها سعت إلى تحقيق أغراضها بعنف ، واعتمدت على القوة العسكرية وحدها ، ولم تحاول أن تجتذب قلوب الناس ، ولم تعبأ بأصول السياسة أو قواعد « الدبلوماسية » وكان

طابعها التعصب فلا تعترف بوجهة نظر الغير ، ولا تقبل معه مساومة ولا مفاوضة ، وتشددت فى فهم الدين فضيقت معنى «الإيمان» بحيث يخرج منه عدد كبير من المسلمين ؛ ومن ثم تجب محاربتهم وتستحل دماؤهم وأموالهم . ثم هى حركة محدودة الأفق : ركزت كل جهودها فى ناحية خاصة من الدين ، وتركت كثيرا من الأصول والمسائل التى لا تقل عنها ، بل تفوقها فى الأهمية . وفى مقاومتها للبدع على اختلاف أنواعها كان لابد أن تنبذ كثيرا من الوسائل التى تؤدى إلى رقى الحضارة وتقدم العمران . ولم يكن القائمون بها أكفاء — لو أتيح لهم النجاح إلى حد أن يحكموا العالم الإسلامى — لأن يجاروا النهضة الحديثة فى ميدان الصناعة والاختراع .

ولكنها مع هذا كله ، وفى حدودها المعينة ، كانت نهضة أخلاقية شاملة ، ووثبة روحية جزيئة ، ودعوة إلى الدين الحق والإصلاح . وقد أيقظت العقول الراقدة ، وحركت المشاعر الخامدة ، ودعت إلى إعادة النظر فى الدين : لتصفية العقيدة . وتحرير الإيمان ، وتطهير العقول من الخرافات والأوهام . وقد احتوت على مبدأين ، كان لهما أكبر الأثر فى تطور العالم الإسلامى وتقدمه ، وهما : الدعوة إلى الرجوع إلى مذهب السلف مع الاعتماد على الكتاب والسنة ، وتقرير مبدأ الاجتهاد . فكان هذان المبدآن أساسا لنهضة فلسفية روحية . والواقع أن كل حركات الإصلاح التى ظهرت فى الشرق فى القرن التاسع عشر ، كانت مدينة للدعوة الوهابية بتقرير هذه الأصول . ويمكن تحديد الصلة بينها أيضا وبين كل من هذه الحركات : إما عن طريق الاقتباس ، أو المحاكاة ، أو مجرد التأثر .

وإذا آثرنا التعبير السياسى : فإن هذه الحركة كانت « ثورة » على الاستبداد ، وصوت احتجاج على الضعف والانحلال الذى آلت إليه حال العالم الإسلامى حينئذ . وأول تحد لخلافة « آل عثمان » وأول حركة « عربية » تحريرية لرفع نير السيادة التركية ؛ فهى فى القرن التاسع عشر تقابل الثورة العربية فى القرن العشرين — غير أن الأولى كان طابعها دينيا ، والأخيرة طابعها سياسى .

من خصائص حضارة الإسلام

للأستاذ محمد أسد « ليوپولدفايس »

الوزير المفوض للباكستان فى هيئة الأمم المتحدة

ترجمها عن الإنجليزية « الأستاذ محمد محمود غالى »

« خلص الأستاذ أسد (١) فى المقال الماضى إلى أن تاريخ البشر جميعا لم يشهد حضارة يستطيع الباحثون أن يحددوا بدء وجودها وأن يتابعوا الظروف والعوامل التى صاحبت مبدأها ونشأتها سوى حضارة الإسلام . وهو يذكر فى هذه الحلقة كيف تفردت هذه الحضارة فى أصولها وخصائصها ، وسامت فى أهدافها وغايتها ووسائلها كل ما عداها من حضارات »

المترجم

* * *

قد يكون انفراد حضارة الإسلام بهذه الميزة التاريخية أمراً يستوقف النظر من الناحية العلمية المجردة . ولكن القدرة على تحديد منشأ حضارتنا على وجه دقيق ، ومعرفة الزمن والطريقة التى بدأت بها أمر أجل من أن يكون ذا خطر من الوجهة العلمية المحضة . ففى هذه القدرة ، وعن هذا العلم نستطيع أن نتفهم ماضى حياتنا ، وأن نعد لحاضرنا ومستقبلنا جميعا . فلسوف نستطيع أن نرى على هذا الضوء الجديد حضارة الإسلام فى حداثتها الأولى وهى ما زالت غضة مشرقة لم يداخلها ما تكاثر عليها بعد ذلك من إضافة وتحريف شوها كثيرا من معالمها وملامحها ، ونستطيع أن نعين تبعا لذلك أصولها ومقوماتها ، وأن نتبين أهدافها ومنازعها الأولى . وليس من اليسير أن نتبين ما كانت تهدف إليه حضارة من الحضارات بعد أن تجوز فى مراحل التطور ما ينأى بها عن أصولها الفكرية والإجتماعية التى قامت عليها ؛ لأن طغيان أصول فكرية واجتماعية جديدة — ما كانت لتتصل بهذه الحضارة بسبب فى بادىء أمرها — لابد أن يعوق فى هذه الحضارة طاقتها المختزنة ، وروحها الدافعة عن أن تتجه وجهتها الأصلية الأولى ، ويدفعها إلى وجهات وطرائق جديدة تغاير اتجاهها الأصيل تمام المغايرة ، وفى ذلك كله ما يثبت أن كل حضارة حية شديدة المرونة سريعة التغير والتشكل.

---

(١) كتب إلينا بعض حضرات القراء يسألون عن ديانة الأستاذ أسد قبل أن يعلن إسلامه والجواب أنه كان يهودياً .

وقد يكون تحديد الخصائص الأولى « للحضارات التقليدية » غير ذى خطر على الإطلاق . وحين أتحدث عن الحضارات التقليدية فإنما أقصد بها كل حضارة قامت على نزعات جنسية أو إقليمية وتقاليد متوارثة .

وتبدو أهمية إشاعة العلم بأهداف حضارة الإسلام ، والبصر بخصائصها وأحكامها بين أفراد المسلمين فى أن هذه الأهداف والغايات ، وماتدفعان إليه من منهج خاص لحياة مجتمعات المسلمين هماوحدهما مصدر حيوية هذه الحضارة ، ومبعث طاقتها الفكرية. وإذا أهمل العلم بأهداف حضارة الإسلام وغاياتها ، وترك فهمها نهبا لمختلف عوامل الطمس والتشويه أضحت هذه الحضاره مجردة من مبادئها الأولى منسلخة عن مناهجها المثلى ، وبهذا تنزع عن صفتها الإسلامية ، ويكون مآلها التحلل والتفكك إلى مجموعات متباينة من الحضارات القومية التى تتبع حينئذ ما استكن فى نفوس أبناء كل إقليم منها من تقاليد متداولة،ونظم متوارثة درجوا عليها ، ولاتتصل هذه الحضارات القومية فيما بينها بسبب سوى ذكريات خافتة لأصل واحد ، ومنهل أصيل نبعت منه فى ماض غامض مبهم سحيق

يتضح من هذا أنه من ألزم الواجبات علينا فى هذا العصر تحديد بدء حضارة الإسلام تحديداً دقيقا ، وحصرما اشتملت عليه من نظم وتعاليم حصراً شاملا إن أريد لهذه الحضارة دوام أو بقاء . ولم يكن بالمسلمين حاجة إلى هذا الحصر والتقصى أكثر من حاجتهم اليوم ؛ فلقد انقضت بيننا اليوم وبين عهد الرسول قرون طويلة قامت خلالها مدارس فكرية كثيرة كان لها من الآراء ماينقض بعضه بعضاً ، وكلها جهدت أن تحدد نظم الإسلام ومناهجه فى الحياة ما وسعها الجهد . ولقد ظلت هذه الاختلافات حتى عهد قريب قاصرة على البحث فى أصول العقيدة ، وأشكال الدين وطقوسه ، ولم تكن لتمس مظاهر الحياة العملية عند المسلمين ، فتركت مظاهر هذه الحياة دون أن تقربها ، أو تعرض لها ببحث أو استقصاء أو جدل ؛ فكانت هناك إلى عهد غير بعيد وحدة فى نظم المجتمعات الإسلامية ، وأوضاعها الاقتصادية ، وقوانينها المدنية والجنائية شملت العالم الإسلامى بأسره ؛ حتى إن المسلم فى الهند وإيران كان لايزايله شعور الأخوة الذى يحس به فى بلاده إذا نزل أرض مصر أو تركيا أو مراكش ، كما كان من اليسر على المسلم من بلاد الأتراك أو أرض الشام أن يرى نفسه حين ينزل ببلاد الهند أو بلاد العرب بين إخوة أبرار . وكان مصدر الشعور بالأخوة فى هذه الأقطار جميعا أن الشريعة الإسلامية كانت قائمة غير مهملة ، نافذة غير معطلة . ولم يكن هناك بين هذه الأقطار فى تطبيق الشريعة إلا خلافات إقليمية يسيرة تتناول تفاصيل التشريع وفروع

الأحكام ، فكانت الشريعة بذلك — رغم ماغشاها من قصور وما أصابها من أسن باعدا بينها وبين بساطتها الأولى على عهد الرسول وخلفائه الراشدين — كانت الشريعة قيم ومعايير استمدت مغزاها وأهميتها من تداولها بين أهل تلك الحضارة طبقة بعد طبقة ، وجيلا بعد جيل ، ولم تقم على مبادىء أخلاقية ، أو أسس فكرية . فلا تعتمد أمثال تلك الحضارات التقليدية فى اتصال حيويتها وبقائها على بقاء منازعها الأولى ، وثبات مبادئها ومناهجها ؛ إنما تعتمد فى ذلك على بقاء طاقتها المبدعة وحدها دون نظر إلى ماتتخذه بعد ذلك من مناهج وأساليب ، أو ما يطرأ عليها فى المستقبل من تحور فى أهدافها وغاياتها .

وقد أوجدت هذه الحضارات التقليدية ضرورات عنصرية أو إقليمية ، وسيطرت عليها جميعا فى الماضى والحاضر حوافز مشتركة فى جنس واحد أو أجناس من البشر اتحدوا فى الإقليم والبيئة ؛ فدفعتهم هذه الحوافز على تحقيقها . وقد تكون هذه الحوافز والدوافع مستتره لا تتجلى واضحة ، ولكنها مع ذلك قابلة للتطور والنمو والارتقاء . وما مثلها فى ذلك إلا كمثل الشجرة حين تنمو وترتفع على سوقها مستمدة غذاءها من التربة والهواء ، متجهة بأغصانها وفروعها وفق ماتدفعها إليه حيويتها وطاقتها الكامنة. ولئن استطعنا أن ندرك آثار هذه الحيوية وتلك الطاقة الكامنة ، وأن نلمس هذه الآثار إلا أننا لا نستطيع أبداً أن نلمس حقيقتها وكنهها . ولعوامل التربة والمناخ كذلك أثرها الذى لا ينكر ؛ فلا نستطيع أن نقطع بادىء ذى بدء فى أى اتجاه سيضرب كل غصن من أغصان هذه الدوحة ، ولا إلى أى مدى ستعمر طاقته الحيوية ، وقابليته للنمو ، ولا يغنينا فى كثير أو قليل فى هذه الحالة أن نسأل عن اتجاه أى غصن من أغصانها ؛ لأنه ليس فى نمو هـذه الأغصان أو اتجاهها ما يثير الاهتمام ، أو يدعو إلى التساؤل ، ولا يقع نمو إحداها أو نموها جميعا تحت طائلة علمنا قدر ما يقع فى نطاق طاقتها المخزنة وقدرتها على النمو .

هذا فى الحضارات التقليدية . أما فى الحضارات ذات المبادىء الخلقية والأسس الفكرية — وحضارة الإسلام إحداها دون شك — فالأمر يغاير ذلك تمام المغايرة ، فحضارة الإسلام لا تستمد وجودها من الدوافع الخاصة التى تدفع بأمة من الأمم أو جنس من الأجناس إلى إيجادها إرضاء لمواهبها وتحقيقا لقدراتها . وإذا كان لهذه الحضارة أن تبعث من جديد إلى الواقع الملموس ؛ فلا ينحصر خطرها وأهميتها فى قيامها فى جنس بعينه دون سائر أجناس البشر ، بل تقوم على ارتباط كل ذكر وأنثى من أفراد البشر ارتباطا واعيا مستبصرا — دون نظر إلى جنس أو بيئة — على أساس من

الإيمان بالله ، والاستقامة فى حياتهم على ما جاء به الإسلام من تعاليم ونظم . وقد ظلت بذلك سائدة مهيمنة لم ينل من سلطانها شىء طوال عشرة قرون سيطرت فيها على كل شأن من شئون المسلمين ، وكل منحى من مناحى حياتهم .

ولكن الحال فى الدول الإسلامية قد تغير اليوم تغيراً واضحا عميقا ؛ فلقد اشتدت الصبغة المحلية الإقليمية فى كل قطر من أقطار الإسلام ، ولازالت هذه الصبغة آخذة فى القوة والطغيان ؛ حتى اكتملت فى كل دولة من دول الإسلام اليوم قومية وطنية يرعاها وينميها ما أخذت هذه الدول عن الغرب من أوضاع ونظم وآراء حتى انتهى الأمر بهذه الاختلافات التى عاونتها أول الأمر ظروف المناخ واللغة والأمزجة بين أجناس المسلمين إلى إنكار صريح جرىء لكل مظاهر الوحدة فى حضارة الإسلام ، وحتى برمت القوميات الموضعية الضيقة لدى العرب والهنود والأتراك بقومية الإسلام وصبغته الشاملة . ولئن كان تقليد الحضارة الغربية أحد أسباب هذا التنكر لصبغة الإسلام وخصائص حضارته ؛ فإن قعود العلماء عن وصل حياة المسلمين بتعاليم دينهم سبب آخر لا يقل شأنا عن سابقه بحال من الأحوال .

هكذا سارت الحال بالمسلمين حتى أوردوا حضارتهم وأصولها محنة طاحنة تدور فى هذه الأوقات العصيبة ، ويتقرر على ضوئها اليوم صلاحية الإسلام للبقاء . ولئن سكت بعض المسلمين اليوم عن الجهر والإعلان عن تنكرهم لشريعة الإسلام ؛ فلن يستطيع بصير أن ينكر أن شكوكهم وريبهم فى صلاحية منهجها قد أخذت عليهم سبيل حياتهم من كل جانب ولن يجدينا نفعا اليوم أن نستنهض فى مسلمى العالم إيمانهم بما بين أيديهم من مظاهر الإسلام . إنما السبيل إلى استنهاض المسلمين بعث عقلى جديد ، ويقظة نفسية شاملة تقوم على اكتشاف أصول الإسلام ، واستشراف مناهجه من مصدريه الأساسيين : كتاب الله ، وسنة رسوله .

توجيه كريم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِقَامَةُ حَدٍّ بِأَرْضٍ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً »

سبحات فكر

لسعادة عبد الوهاب بك عزام

سفير مصر فى الباكستان

فاتحة

يدور الفلك وتمر السنون ، وتعدو بنا الأيام ، والإنسان مشدوه بعدوها ، يكاد يُغلب على عدّها . وهو كراكب السفينة الماخرة السريعة . ينظر وراءها فإذا البحر مزبد والماء مسرع ، وإذا صفحة من اللج بعد صفحة ، ولجّة من البحر بعد لجّة لا تستطيع توقفاً ولا تريثاً . ورحم الله الشاعر أسد الله غالب إذ يقول :

أسوم جواد العمر ريثاً وماله ركاب برجلى أو عنان بأنملى

ومن مات كمن سقط على اللج ، تجوزه السفينة ، ويبعد عنه الركب ، وينأى عن البصر ، ثم عن الفكر .

وليس يثبت فى هذا الجريان إلا عمل صالح يبقى سنّة فى الحياة ، وإلا قول طيب يبقى هدى للأحياء .

فمن شاء ألا تمضى به الأيام سدى ؛ فليجتهد أن يبارى الأيام ويسابق الزمان مسارعة إلى الخيرات ، وبداراً إلى الحسنات بكلمة طيبة ، أو عمل صالح ، أو علم ينفع الناس ، أو فكر يضىء فى أرجاء هذه الأرض .

إن الإنسان ليغفل فيعطل فكره أو يده . ولكن الأيام لا تقف والفلك لا يغفل .

فاجهد ما استطعت أن يدأب فكرك ويدك نصرة للحق وفعلا للخير .

* * *

الحق يجمع والهوى يفرق

الحق فى كل أمر محدود ، والباطل كثرة لا تحدّ . والعدل فى كل قضية واحد ، والهوى نزعات لا تعد .

فإذا أخذ الناس بالحق اجتمعوا ، وإذا آثروا الباطل تفرقوا . وإذا قضوا بالعدل ائتلفوا ، وإذا مالوا إلى الهوى تباغضوا .

وإن ما تسمع وترى من خصام وافتراق ، وبغض وشقاق ، وجدال ومراء ، وتنافر وعداء . كل أولئك مما آثر الناس الباطل ومالوا مع الهوى .

ودواء هذا الداء أن يعرّف الناسُ الحقَّ ويبصَّروا به ويرغَّبوا فيه ، حتى يُحبّوه فيؤثروه ، وأن يبصَّروا بالعدل ويمرّنوا عليه فيطيعوه ، وأن يكشف لهم الباطل فى شناعاته ، والجور فى سيئاته ، ويعلّموا كيف شقى بهما الناس ، وأخرب بهما العمران .

فسّروا للناس هاتين الآيتين بالقول والعمل :

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

« ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

* * *

دهان على وبر

يقال فى المثل للدواء الذى لا ينجح لأنه لا يصيب موضعه ، ولا يتجاوز الظاهر إلى الباطن : إنه دهان على وبر . يعنون أنه لما يطلى الجمل الأجرب على وبره . والدهان لا ينجع ما لم يقع على موضع الداء .

وأنت تقرأ كل يوم عن جرائم كثيرة ، ومخاز شتى تدل على مرض فى النفوس أو الجماعة ، أو خلل فى النظام . وترى كيف يتبع الشرطى الجناةَ حتى يأخذهم ، وكيف يمسكهم القانون حتى يعاقبهم ؛ ولكن سيل الجرائم لا يكف ، وسلسلة المخازى لا تنقطع .

إن الشرطة والقضاء يُخيفان ولا يصلحان ، ويعاقبان ولا يربّيان ، ويأخذان المجرم بما اجترح إن ظفروا به ولكن لا يداويان المرض الذى ينشىء الجرائم .

الشرطة والقضاء يعدّدان الحادثات ، ويعاقبان عليها . ولكن الأمة لا تعنى بالتأمل فى أسبابها والقضاء عليها ، وكفاية الناس شرها ؛ وإنما يُكفى الناس شرها بالمداواة لا بالمجازاة .

ستزداد الجرائم على رغم الشرطة والقضاء إن لم تعالج مصادرها فى النفس ، وفى سنن الجماعة . ستزداد إن لم يتصل الدواء بالجسم باطنه وظاهره . ستزداد إن اكتفينا بهذه الوسائل التى هى دهان على وبر .

نظرات في التربية

للأستاذ عبد العزيز عطية
المراقب المساعد بمنطقة دمنهور التعليمية

(١) التربية والتعليم

لكى نسير فى تربية هذه الأمة على أسس سليمة، وسبل قويمة لا بدّ أن نتتبع البحوث العلمية قديمها وحديثها فى تربية الشعوب قديماً وحديثاً، ولا بد من النظر فى الوسائل الموصلة إلى الغرض لنتعرف سليمها وسقيمها، ومعوجها وقويمها. ولدينا فى الفلسفة الإسلامية وغيرها من الفلسفات القديمة والحديثة الكثير من الوسائل والطرق التى اتخذت أساسا لإصلاح الشعوب وتكوينها تكويناً نافعاً، سواء فى معاهد العلم، أو فى خارجها حيث تشتبك مصالح الناس، وتصطرع رغائبهم، وتشتجر مساعيهم لبلوغ غاياتهم فى الحياة بحسب ما يهيأ من الوسائل للأفراد والجماعات.

فقد تكون ظروف الأمة، وأحوالها المعيشية، والاجتماعية، والإقليمية داعية إلى اتخاذ لون من ألوان الحياة يغلب عليها وتعرف به. فقد تتخذ الأمة طريقاً إلى الاستعمار مثلا فتعوّد أبناءها النزوح إلى البلاد النائية، وتغريهم بالاستيطان فى أراض واسعة ذات خيرات وفيرة من مواد أولية أو محصولات مختلفة، وشعوبها ما تزال مقيدة فى عيشتها متأخرة فى صناعاتها ومواصلاتها ومناحى عيشها؛ فينزلون بها ليثمروا المال والعقول والصناعات فى هذه الأرض الخصبة، كما نشاهد فى الأمم الاستعمارية قديماً وحديثاً.

وقد تكون الأمة بحال تدعو أبناءها إلى العكوف على استثمار أرضها، وشواطئها وبحيراتها، وتكثير صناعتها، وتنمية مواردها كالأمم الزراعية، والأمم الحديثة التكوين، أو التى أفلتت من نير الاستعباد غير بعيد.

وقد تكون الأمة ذات رسالة دينية تدعوها إلى غزو الأمم غزواً أخلاقيا ودينيا وأدبيا — لا طلبا للمال والكسب والتوسع — فيدعوها ذلك إلى اتخاذ وسائلها الخاصة التى تبنتها تلك الرسالة، ودعت إليها، وحرّضت أتباعها على اتباعها؛ كالأمة الإسلامية مذ ظهر الإسلام، وقد تكون الأمة ذات مبادىء خاصة تراها أحسن الوسائل لجمع شعب أو شعوب عليها؛ فتسعى وسعها فى نشر مبادئها، وتعميم مذهبها لدى أمم كثيرة، وشعوب

مختلفة بوسائل تبتكرها لتحمل الناس على الالتفاف حولها ومشايعتها ؛ كما نرى فى الدولة البلشفية الآن ، أو الدول الديمقراطية أوروبية وأمريكية .

وقد تكون الأمة ذات وضع سياسى خاص بسبب موقعها الجغرافى ، أومنابع الثروة المعدنية مثلا ؛ فيسيل لعاب أمم كثيرة على احتضانها أو الاستئثار بخيراتها ، أو موقعها ، فيوجب ذلك عليها أن تتخذ من الوسائل والحيطة والتشبث بالاستقلال ، وعدم التفريط فى مواردها مايجعلها تقاوم هذه العوامل ، وترد عنها هذا الكيد ؛ فيحملها كل ذلك عناء ومشقة فوق ما يحملها على مواجهة هذا الهجوم بقوة الرأى والتدبير والحنكة لكى تبقى سليمة البنيان حصينة الحدود ؛ وتلك كمصر وباكستان وإيران وغيرها .

لذلك كله تتنوع أساليب التربية والتعليم فى الأمم والأعصار؛ فتنتهج كل أمة مايناسبها بحسب ظروفها وأحوالها واتجاهها . ولذلك يخطىء من يحاول تطبيق وسائل تعليم أمة وتربيتها على أمة أخرى تخالفها فى الوضع الجغرافى ، وفى بسطة العيش وموارد الكسب ، ووسائل الحياة . والذين ينقلون إلينا من البلاد الأجنبية نظما كاملة ليطبقوها بمدارسنا ، وعلى شعبنا يظلمون الشعب ظلما فادحا ، ويظلمون التعليم ظلما كثيراً ؛ فيضيعون الجهود والمال والزمن على الأمة والأفراد فى غير طائل ، وتذهب الأمة ضحية هذا الجهل الذى لبس ثوب العلم والمعرفة ، ويضاعف الخسارة والظلم أن تتعدد هذه التجارب الفاشلة بتعدد القائمين على التعليم . وكثير هم الذين يتولون أمور التعليم ثم مايلبث غيرهم أن يزيلهم عن مناصبهم ؛ فينقض الآخرون ما أبرمه السابقون : « كلما دخلت أمة لعنت أختها » .

نعم لقد وضع فلاسفة الأخلاق ، وعلماء التربية قديما وحديثا قواعد ما أحراها أن تكون لبيئات خاصة تزدهر فيها ، ولا حرج على الآخرين أن يجربوا منها ما ينفع فى بلاد أخر ، فإن أثمر فى موضع التجربة فيها ، وإلا فلتكن الفلسفات قواعد عامة لتختار كل أمة ما يناسبها فى بيئتها وأحوالها .

ولهذا كان لا بد للباحث فى تربية الأمة المصرية وتعليمها أن يضع نصب عينيه أن لهذه الأمة دينا قويما يجب أن يقودها فى حياتها بما يشمله من مبادىء سامية ، وأوامر ونواه قوية رادعة ، تسير به داخل المنزل وفى الشارع والمصنع والحقل والسوق ، وفى جميع نواحى الحياة . نعم لابد أن يعرف أن الأمة المتدينة أقرب إلى الإصلاح وأدنى إلى الهدى ، وأنها بقدر ما تنفذ من أمور دينها تقرب من أسباب سعادتها ، وأنها تفقد من الخير والرشد بقدرماتترك من أوامر الدين ونواهيه ، وأن عزها وطمأنينتها، ومجدها وغلبتها ، وسمو مكانتها فى طاعة أبنائها وحكومتها وقادتها لهذا الدين .

وكان على الباحث أيضا أن يعرف أن لهذا الشعب لغة هى أشرف اللغات وأمجدها وأوفاها وأثبتها على الزمن ، وأن خلود هذه اللغة وعزها وعظمتها قد اكتُسبت من طريق لم يتيسر لغيرها ولن يتيسر ؛ ذلكم هو القرآن الذى خلدها وشرفها وثبتها ، وسنة الرسول التى وضّحت الكتاب وبينته للناس . وأن من يحاول أن يستنزل هذه اللغة عن مكانتها ، ويلبسها ثوب المهانة ، أو يضعها فى غير الصدارة من المواد التى تعلم لأبناء الشعب ؛ فإنما يغمد سيفاً فى قلب هذه الأمة ، ويهدم بنيانها ، ويقوض دعائم نهضتها. وذلك ما نراه — مع الأسف الشديد — فى نهضة مصر الحاضرة .

وعلى الباحث أيضا أن يعلم أن من يحاول أن يذيع فى هذه الأمة رأيا أو خلقا أو مذهباً أو بدعة تتنافى مع صالح الأخلاق وجميل العادات ، وتعاند تعاليم الإسلام الصحيحة ؛ فقد جهد أن يجعل هذه الأمة مع الشياطين ، وأن يسلك بها سبيل البرابرة ممن تراهم فى لبوس الآدميين ، وأخلاق المتوحشين .

ولقد جاء الإسلام بتعاليمه للناس كافة ، فأذاع على الأشهاد مبادئه الخالدة ، وحرر العقول والأفهام من قيود الذل التى كانت ترسف فيها ، ورفع أعلام الفضيلة ، ورسم للعالمين سبل الخير ، ودعا إلى المقاصد السامية ، وقاد الناس بدستور واحد جامع لخلال الخير، حتى لا يتخذ كلٌّ إلهه هواه ، ويضل الناس فى متاهات الطمع والحسد والتناحر على العيش والحطام . جاء بذلك ، وحمل الناس على الاتباع فى تربية صحيحة ، وهداية شاملة « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

هذه التربية الموحدة من حيث المبادىء العامة هى التى يجب أن تسود العالم جميعا . أما ما يناسب كل أمة فى أمورها الخاصة من أحوال العيش ، وضروب الكسب فقد تركه الإسلام تضطرب الناس فيه ؛ ليسلكوا سبله بعيدين عن المآثم ، محافظين على أصول الدين وقواعده . لكن حكمة الله اقتضت أن يختلف الناس : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » وليس فى ذلك الذى ذكرنا ما يناقض لاحقه سابقه فى اختصاص كل أمة بحال فى تربيتها وتكوينها .

لذلك سنراعى فيما نكتب أن نستهدى فلسفة الإسلام ، ونستلهم روحه ، ونستوحى تعاليمه ؛ لنبنى على الأسس السليمة ، ونرسى على القواعد الثابتة بناء هذه الأمة ، بناء محكماً يشاد عليه صرح مدنية نقية زاهرة ، بعيدة عن العبث ، بعيدة عن الاضطراب .

ولما كان للوراثة والبيئة من الأثر البالغ فى تربية الفرد والجماعة ؛ فإننا معرجون على بحث هذا الموضوع قبل الدخول فى موضوع التربية والتعليم .

يقول الله سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » . والسلالة الخلاصة ويقول : « إناخلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه » والأمشاج الأخلاط ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . ولم يعد هناك شك لدى علماء الوراثة فى أن الإنسان به من أمه وأبيه شبه فى شكل الأعضاء والملامح ، وقد يزيد هذا الشبه أو ينقص . وقد اختلف العلماء فى ميراث الإنسان لوالديه فى الصفات والأخلاق والعادات ، وقيمة الذكاء : أى فى الحياة العقلية . واختلافهم لا يصل إلى حد إنكار هذا الميراث ، إنما يتعلق بقيمته وأهميته فى سلوك الفرد ، وتأثره به تأثرا يوجه حياته إلى ناحية معينة بالقدر الذى ورثه : فالعالمان جولتون Francis Galton وكارل بيرسون Karl Person ومن على شاكلتهما يجعلون للوراثة الأهمية البالغة فى سلوك الفرد ، وأمثال جون لوك J. Locke وشافتسبرى Shaftsbury يجعلون لوراثة الخلق المتأصل فى الآباء والأجداد أعظم الأثر فى توجيه الإنسان نحو الخير أو الشر ؛ مما يجعله عيز بين الخير والشر بنفسه . ولعل من فسر الرسول بالعقل فى قوله سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ممن يعتقدون هذا الرأى . وغير هؤلاء علماء لم يجعلوا للوراثة تلك الأهمية إذ يقولون إن البيئة هى ذات الأثر القوى فى حياة الإنسان . وعلى كل حال فلا بد أن نتتبع الوراثة والبيئة كلتيهما بشىء من التفصيل ؛ حتى نصل إلى الرأى الذى يجب الأخذ به .

والمراد بالوراثة أولاً وراثة الخصائص الجسمية ، ويقصد بها التشابه فى الأعضاء واللون والملامح والصوت والحركات . وهذه نتيجة العوامل التى تحل فى البيضة فى اللحظة التى تتلقح فيها من الذكر فى الرحم . ويقول العلماء إن الخلية الملقحة يكون فيها خيوط تسمى الكروموسومات Chromosomes وإن هذه الخيوط قد تنقسم إلى مناطق مختلفة تحمل كل منطقة منها نوعا من الاستعدادات التى منها ما يخص الأم ، ومنها ما يخص الأب ، وإنه لكى تنمو هذه الخلية لا بد لها من بيئة صالحة هى الرحم تكون ذات حرارة ورطوبة وغذاء تهيىء لها أسباب النمو والحياة .

ويرث الإنسان عن أبويه غرائزه واستعداداته ، ولكن لا يرث عنهما العادات والصفات المكتسبة — على رأى — إذ أن هذه توجدها البيئة ، ولذا كان لا بد من ملاحظة غرائز الأطفال وتهذيبها لنبنى على أسسها عادات حسنة ؛ ليستطيع الإنسان أن

يعيش مع الناس . والمجموع العصبى — المتأثر كثيراً بالوراثة بطبيعته — يصدر عنه من الذكاء أو البلادة ، ومن الانفعالات ، ومن القوة والضعف العقلى ما يدين به الإنسان فى غالب الأمر لأبويه القريبين أو البعيدين . فالذكاء يورث ، وليس الذكاء إلا الاستعداد الذى يخلق مع الإنسان ، وإنه لكى يزدهر وينمو لا بد أن ينمى ويربى ، حتى يبلغ غايته وتلك هى الفطرة «فطرة الله التى فطر الناس عليها» ، « كل مولود يولد على الفطرة» وفى البذرة استعداد للنمو . إنما تصير نباتا عندما تهيأ لها البيئة من حرارة. ورطوبة وتربة صالحة ؛ فكذلك الإنسان . ويقول الدكتور القوصى فى كتابه « أسس الصحة النفسية » : « وقد وجد الباحثون أن أبناء المشتغلين بالأعمال الفنية والإدارية أذكى فى مجموعهم من أبناء المشتغلين بأعمال بسيطة ، أو يدوية أو آلية » ومن أصحاب هذا الرأى دارون ولامارك وهربرت سبنسر . ثم يقول : « ووقوفنا على وراثة الذكاء أمر مهم ؛ لأن الذكاء عامل أساسى فى التكيف بين الشخص ، وبين المحيط المادى والاجتماعى». لارتباط كثير من مشاكل التربية بمعرفة مقدار ذكاء الطفل .

وأما الأخلاق فأساسها هو الذى يورث . وأساسها الغرائز والمزاج المركب فى طبيعة الإنسان . والمزاج نتاج التكوين الخلق من العناصر التى يتركب منها الجسم ؛ فإذا غلبت مادة مخصوصة على المواد الأخر غلب على الشخص مزاج ذو صبغة خاصة تؤثر فى حياته تأثيراً شديدا . مثلها فى ذلك مثل الدواء يركبه الصيدلى مختلطا من مواد تختلف فى اللون والطعم والرائحة ؛ إنما يغلب لون منها على بقية الألوان فينسب إليه ، ويغلب طعم منها على بقية الطعوم فينسب إليه ، وكذلك الرائحة. والبيئة التى يعيش فيها الإنسان هى التى تنمى ناحية من هذه النواحى وتزدهر فيها ؛ إذ الأخلاق سلوك الإنسان مع الناس. ومن ثمَّ كانت العناية بالغرائز والاستعدادات واجبة الرعاية والتهذيب .

والبيئة ما يحيط بالإنسان فى حياته من لدن وضع جرثومته فى الرحم : وهى طبيعية واجتماعية وروحية . والإنسان متأثر بها حتما ؛ إذ الكائن الحى لا تتأتى له الحياة إلا فى بيئة خاصة تلائمه ، وقد يكون وضعه فى البيئة سبب الحياة أو الموت ، أو القوة أو الضعف ، أو الخمول والكسل أو القوة والنشاط ، أو التوجه فى الحياة إلى ناحية خاصة لغلبة نوع من التأثير على العقل والوجدان ؛ فالإنسان الذى يعيش حياته فى البادية غير الذى يعيش فى الحضر فى أخيلته ومعلوماته ومعاملاته لنفسه ولغيره . فالحياة العقلية والخلقية تتأثر كثيراً بالبيئة التى نعيش فيها ، وليس العقل والخلق إلا ثمرة من ثمرات هذه الحياة .

والبيئة الاجتماعية : مدرسية ومنزلية ، وفى خارجهما ، فى الشارع والمصنع والمتجر ، وأفنية اللعب ، وفى الأندية والمجتمعات تؤثر أثراً شديدا فى حياة الإنسان . كذلك البيئة الروحية

تؤثر كثيرا فى حياة الفرد ؛ إذ الذى يعيش فى جماعة تتحلى بآدب الدين، وتتعلق بأهداب الفضائل لا بد أن يتأثر بها ، والذى يعيش فى مرابع الشر ، ويشاطر الأشرار حياتهم ومعيشتهم لا بد أن يتأثر بهم ؛ ولذا ضرب الإسلام على أيدى العابثين بالأخلاق ضربا شديدا حتى لا يكونوا مثلا لغيرهم ، وجعل الحدود توقع على مرأى من الناس لتكون لهم فيها عبرة ، وجعل للذين يشيعون الفاحشة بالقول والفعل العذاب الشديد :

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » . كما جعل الأسوة الحسنة هداية للناس : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » وللوراثة والبيئة علاقة قوية لا تنفصم عراها ، ولا ترث حبالها مادام الإنسان ، فهما تعملان معا فى حياته . وعلاقتهما كعلاقة الجسم بالروح والحياة ، إذ لا تتصور حياة بدون جسم ، ولا يذكر الجسم بدون الحياة فلا تنفك إحداهما عن الأخرى ؛ لذا كان لا بد من رعايتهما معا فى تربية الفرد ، وكان على الوالدين أن يورثا ولدهما جسما صحيحا ، وخلقا كريما ، وعقلا سليما . ومن هنا كانت مسئولية الأبوين أمام الله عظيمة ، وكان فضل الوالدين على ولدهما كبيرا ، وكانت الحكومة أيضا مسئولة عن التدهور الخلقى والعقلى والصحى فى الأمة ؛ حتى لا يرث الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد إلا ما ينفع ، وعليها إذن أن تهيىء للشعب حياة صالحة ، بعيدة عن الرجس والآثام فى حدود الآداب والأخلاق الكريمة ، والأوضاع الاجتماعية السليمة : تحكمه قوانين صالحة ، وتربيه مبادىء قويمة شريفة . وهذا ما سنحاول بيانه فى المقالات التالية إن شاء الله .

العظمة الحقيقية

إن القياس الحقيقى لعظمة الإنسان ليس هو جهاز « الراديو » أو « التلفزيون » الذى يملكه ، ولا السيارة التى يركبها ، ولا جهاز الغسيل الآلى ، ولا القنبلة التى يدمر بها الحياة على وجه الأرض ... وإنما هو أثر ذلك كله فى مشاعره وعواطفه ، وكيانه النفسى على وجه العموم . فإذا كان يصل به إلى فكرة عن الإنسانية أوسع وأشمل ، وفكرة عن الحياة أكبر وأرفع ؛ فقد ارتقى الإنسان حقا بكل ذاك . أما إذا كان يضيق مشاعره إلى نطاق الأنانية المرذولة ، ويعكف به على ملذات الجسد اللهوفة ؛ فقد انحطت البشرية رغم هذا البريق الذى يخطف الأبصار ...

من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام »

للأستاذ محمد قطب

مقترحات

للدستور الإسلامي في الباكستان

للأستاذ أبي الأعلى المودودي

أمير الجماعة الإسلامية في الباكستان

الفصل الأول

المادة ١

الحاكمية في الدولة لله وحده .

بيانها : لا تكون الحاكمية في الدولة لفرد أو أسرة أو طبقة أو جماعة بل ولا لجميع سكان الدولة . إن الحاكم هو الله وحده فلا قانون إلا ما يحكم به .

المادة ٢

الشريعة الإسلامية هي القانون الأساسي للدولة .

بيانها : إنما وصل القانون الإلهي إلى الناس بواسطة الرسالة المحمدية . فالذي تلقوه بهذه الواسطة شيئان : أولهما كتاب الله الذي بيّن الله فيه قانونه . والثاني شرح لهذا الكتاب وتفسير له قدمه الرسول بقوله وفعله وتقريره من حيث إنه نائب عن الله عز وجل وخليفته في هذه الدنيا . فمجموع هذين الأصلين هو ما يسمى بالشريعة الإسلامية ، وهي التي تكون مأخذاً ومرجعاً لقوانين الدولة .

الفصل الثاني

الخـــلافة

المادة ٣

تكون الدولة بمنزلة الخلافة تحت الحاكمية الإلهية ، وإنما تنحصر وظيفتها في أن تحقق مرضاة الله تعالى بالعمل في هذه الدنيا وفقاً لهدايته المنزلة ، وفي ضمن الحدود التي عينها الرب تعالى .

المادة ٤

الخلافة التى أسست على بنيانها هذه الدولة ، خلافة اجتماعية يشترك فيها جميع أفراد الدولة الذين يعترفون بالمادتين الأولى والثانية ، ويسلمون بهما تسليما .

المادة ٥

أفراد الدولة المتمتعون بحقوق الخلافة وصلاحياتها يؤلفون لأدارة الدولة — بانتخابهم الحر العام — حكومة تشتمل على أمير ومجلس للشورى ، ويفوضونها جانباً من صلاحيات الخلافة التى يتمتعون بها . فهذه الحكومة تقوم بواجبات الخلافة فى الدولة مادامت حائزة لثقة الجمهور .

الفصل الثالث

غاية الحكومة

المادة ٦

والحكومة تكون غايتها :

(ا) أن تقيم العدالة الاجتماعية فى البلاد .

(ب) ان تعمم فى البلاد جميع صور المكارم والحسنات ، وتحقق لحياة أهلها الطهر والجمال والخير ، وتستأصل الفواحش والمنكر ، وتقضى على كل ما يخرب الأرض ويفسد على الناس حياتهم .

(ج) أن تحافظ على حقوق أهل البلاد .

(د) أن تحافظ على حرية أهل البلاد ، وتحمى الدولة من هجمات الأعداء .

(هـ) أن تبذل الجهد المستطاع فى الدعوة إلى الخير والتنفير من الشر فى ما سواها من بلدان العالم .

وكل ذلك وفقاً لمرضاة الحاكم الحقيقى — أى الله عز وجل — وأحكامه .

الفصل الرابع

سياسة الحكومة وخطتها العملية

المادة ٧

من المحتوم على الحكومة أن تختار لتحقيق الغاية المذكورة آنفا الوسائل المعروفة المباحة. وتكون سياستها مبنية على الصدق والعدالة والأمانة. وهى تؤثر الحق والأمانة والمناهج الإسلامية على الأغراض والمصالح فى كل ما يعرض لها من الصلات بين الراعى والرعية فى داخل البلاد، أو بين أمة وأخرى فى خارجها.

الفصل الخامس

المبادىء العامة للحقوق الإنسانية

(وتلك حقوق تراعى بصفة مساوية فى داخل البلاد وخارجها، وبين أهل البلاد وغير أهلها، وبين المسلمين وغير المسلمين من أبناء البشر).

المادة ٨

(ا) للنفس الإنسانية حرمتها لا تقتل إلا بالحق.

(ب) كذلك للدم البشرى حرمته لا يهراق إلا بالحق.

(ج) لا يجوز الاعتداء على النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والجرحى فى حال من الأحوال، (إلا أن يحرم أحدهم نفسه هذه الحرمة؛ بعمل حربى أو مايشاكله من التجسس وغيره).

(د) وكذلك عرض المرأة له حرمته ولا يجوز هتكه بحال.

(ﻫ) من حق الجائع أن يطعم، والعارى أن يكسى، والشارد أن يؤوى، والجريح أن يداوى، والمريض أن يواسى. وإن كان هذا الجائع أو العارى أو الشارد أو الجريح أو المريض من قوم عدو للدولة؛ إذ لا يجوز فى داخل حدود الدولة أن يحرم أحد الحاجات الإنسانية اللازمة.

(و) لا يجوز أن يفرق بين عباد الله فى الحقوق الإنسانية الأساسية لأجل اللون أو الجنس أو اللغة أو الحرفة أو القومية أو الوطنية أو الدين.

«يتبع»

المال بين الله والإنسان

مال الله :

يقول الاقتصاديون : إن الناس لايخلقون الثروات ، وإنما يخلقها الله سبحانه وتعالى . وهذه القضية لاتحتاج من عامة الناس — فضلا عن خاصتهم — إلى كد ذهن أو إجهاد قريحة ؛ فهى واقعة منهم جميعا موقع التسليم بالبدهيات .

وهذه الثروات إما معدنية ، أو حيوانية ، أو نباتية ، وقد جاءت الإشارة إليها كلها فى القرآن الكريم معزوة إلى الله سبحانه لا إلى أحد غيره .

١ — ففى الإشارة إلى الثروة النباتية يقول عز شأنه : « أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ » . « أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ » . « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .

٢ — وفى الإشارة إلى الثروة الحيوانية يقول سبحانه : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » . « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » . « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » .

٣ — وتوجهت الإشارة إلى الثروة المعدنية بمثل قوله سبحانه : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس » . وإلى العيون المعدنية الذائبة فى نحو قوله جل ثناؤه : « وأسلنا له عين القطر [1] » .

وأنت بهذا ترى الاقتصاديين لايجاوزون فى تقريراتهم ماسجله القرآن الكريم معزوا إلى الله سبحانه ؛ فخالق الثروة هو الله لا الإنسان ، ومالكها هو الله لا الإنسان ؛ فإذا جاء شخص ما يدعى لنفسه ملكية شىء ما فقد افترى على الله الكذب إلا إذا كان على سبيل المجاز والتساهل فى التعبير .

ويقول الاقتصاديون كذلك : إن عمل الإنسان لايتعلق بخلق الثروة ، وإنما يتعلق

---

(١) القطر : النحاس المذاب .

باستهلاكها والانتفاع بها ؛ فإذا وجد الشيء صالحا للانتفاع انتفع به كما هو كالهواء والماء وبعض الثمار ، وإذا وجده غير ملائم لمزاجه عالجه بما يجعله صالحا للانتفاع ؛ كطحن القمح ثم نخله ثم خبزه حين أصبح الإنسان يعاف تناوله حبا كما خلقه الله .

وإذا وجد الشيء غير ملائم لذوقه أدخل عليه من التعديلات الظاهرية الشكلية مايجعله على الهيئة التي يريد ؛ فجذع الشجرة في الفطرة صالح لأن يكون مقعدا يجلس عليه الرجل الفطري ، ولكن الإنسان الحضري يذهب مع مطالب الترف ، فيطلب للكرسي مسنداً للظهر ، ومتكأ للجانبين ، فهل تراه يخلق هذا الكرسي ؟ أو هل تراه يخلق الخشب له ؟ إن كل عمله أنه يقطع الجذع أجزاء كثيرة ، ثم يدخل على كل جزء منها تعديلا ظاهريا يتناول الشكل فقط ، ثم يجمع كل قطعة إلى أختها حتى يتألف من مجموعها هذا الكرسي الذي يريد .

فعمل الإنسان على هذا محصور في دائرة الاستهلاك لاالإنتاج [1] فمن زعم أنه منتج فقد خالف الواقع ، وتحدى الحقائق . . ومن هنا ندرك خطأ الذين يقولون إن مطاحن الدقيق ومصانع الخشب والصلب هي دور إنتاج ، اللهم إلا إذا سموها على سبيل المجاز والتساهل في التعبير . فنحن في الحقيقة مستهلكون والله هو المنتج ، وقصة هذه الأرض في حياتها الاقتصادية الظاهرة تدور حول محور واحد : إن الله يخلق ... ونحن نستهلك .

فالمال مال الله — إذن — لامال الإنسان .. والإنسان مخلوق لاعمل له في الإنتاج ، وكل عمله محصور في دائرة الاستهلاك ، أو تهيئة الأشياء للاستهلاك . . ولا مفر لنا من الوجهة المنطقية من التسليم بأن صاحب الحق الأول في تشريعات المال هو الله سبحانه .

١ — فهو الذي يشرع كيف نحوزه وكيف ننفقه .

٢ — وهو الذي يحدد معنى قيامنا فيه وحيازتنا له .

٣ — وهو الذي يبين مافيه من الحقوق الواجبة وغيرها ؛ فإذا أراد الإنسان أن يشرع بعد ذلك فإن منطق الواقع يلزمه أن يتقيد بمشيئة الله في تشريعه .

ولكن الناس يفهمون الحقائق ويقررونها ، ثم لايلتفتون إليها حين تشريعها أو حين تطبيقها . فهل ترى أظلم ممن يرى الحق ثم لايتبعه ؟ وهل ترى أجهل من الذي يلهج بالمنطق ثم يجتنبه ؟ وهل ترى أخسر من أولئك الذين يجانبون الحق والمنطق وهم يعلمون ؟!..

---

(١) لايتقيد الباحث في ذلك بالاصطلاحات الفنية في علم الاقتصاد الحديث .

الغنى والفقر :

يقرر الاقتصاديون وغير الاقتصاديين أن العمل هو الوسيلة الطبيعية الأولى لامتلاك الثروة ؛ فمن عمل فله قيمة ما عمل ومن لا عمل له فلا شيء له . ولقد تبين فيما سبق أن العمل كله لله ، فهو الخالق الموجد المنشيء المنعم ، وأن لا فضل للناس فى شيء ، وأن لا عمل لهم قط فى إنتاج الثروات ، وإنما كل عملهم فى استهلاكها أو تهيئتها للاستهلاك . ومعنى هذا بلغة الواقع الذى لا ينقض أن الغنى هو الله سبحانه وأن الناس من هذه الوجهة هم الفقراء جميعاً . والله سبحانه يقرر هذه الحقيقة فى يسر وسهولة بقوله : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » ؛ وبهذا يلتقى ما يقرره الواقعيون بما تقرر له سبحانه فى علمه القديم .

واعلم يا أخى أننا حين نهتم بإبراز هذا المعنى لا نريد أن نتسلى بدرس دينى نسوقه للناس ، وإنما ننبه إلى النقطة الخطيرة التى ينبعث منها ويتشعب عنها كل ما عرفت الإنسانية من طغيان فى عصورها القديمة والحديثة ؛ وسيظهر لك معنى هذا القول من الوجهة الدينية والاجتماعية فيما سيأتى ؛ فلا بد من تحديد هذه النقطة الخطيرة والكشف عنها ، وإظهارها لأعين الناس : أعين قلوبهم ورءوسهم ؛ فلقد جئنا إلى هذه الأرض من الغيب المجهول حفاة ، عراة ، ضعافا ، لا نملك شيئاً ، ولا نقدر على شيء ، فهل الفقر شيء غير هذا ؟

جئناها وأقمنا فيها ، ولم ندر لماذا جئناها أو لماذا أقمنا فيها وعما قليل سنرحل عنها ، ونخلفها وراءنا ، ولا نأخذ منها شيئاً ؛ فهل هذه حال أهل الملك والغنى ؟ . . ولا تظن يا أخى أن الله غنى لأنه يملك خزائن السموات والأرض ؛ حاشا وكلا ؛ إننا لم نذكر ما تقدم بأسلوب الاقتصاديين إلا لنقنع فقط من لا يريد أن يقتنع إلا بلغة الواقع أما الشأن الحقيقى فى غنى الله سبحانه فهو أنه قائم بذاته ، غير محتاج إلى شيء قط ، لا لأنه يملك هذا الملك الواسع . . أما البشر فهم فقراء جميعاً ، لأنهم يحتاجون إلى كل شيء ، ولا تستطيع حياتهم الاستغناء عن شيء ؛ وهذا من الحقائق العليا التى يجب على علماء الاجتماع ألا يهملوها ؛ ففرق الخالق من المخلوق أنه سبحانه قائم بذاته ، غير محتاج إلى شيء ، ولا يتوقف وجوده على شيء ؛ أما المخلوق فلا قيام له بذاته ، ولا يستطيع الاستغناء عن الله وعما خلقه الله له ، وهذا هو معنى الفقر فى صميم حقيقته ؛ فمن ذهب من الناس يدعى لنفسه غير هذا ، فقد غير الحقائق ونازع الله ملكه وصفاته . وذلك هو الكفر المبين والله سبحانه يقول : « ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ، فلننبئن الذين كفروا بما عملوا

ولنذيقنهم من عذاب غليظ » . . فأصل الكفر وبلاؤه أن يقول : هذا لى (ويدعى ملكية ما ليس له بملك) وينسى أنه كان بالأمس ترابا أو نطفة ليس لها من الأمر شىء ، ولقد ساق الله هذه الحقيقة فى حوار رائع بين رجلين أحدهما غنى فتنه غناه عن نفسه وعن ربه : « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً » إلى آخر ما قال؛ أما الآخر الذى لم يفتنه شىء عن حقيقة نفسه وربه فقال لصاحبه وهو يحاوره : « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ » . . .

الطغيان وسببه :

ولا عجب أن يكون هذا القول من الكفر ؛ فهو يصوّر حالات نفسية من الزهو والخيلاء والفخر ، وهى حالات تنشأ فى نفس صاحبها حين تنقطع صلته بالله ، ويغيب عنه أن الله هو الغنى وبيده مفاتيح كل شىء ، وأن من عداه سبحانه محتاج إليه فيما تقوم به حياته ؛ فإن لهذه العقيدة — عقيدة غنى الله وفقر الناس واحتياجهم إليه — مشاعر إذا ظهرت فى القلب أحس أنه دائما مفتقر إلى فضل الله ، لا غنى له عن شىء منه فهو دائم الضراعة والدعاء والوقوف على بابه سبحانه ، ولا يعقل أبداً فى هذه الحالة أن يلتفت القلب إلى الفخر أو الزهو أو الاستعلاء على الناس ، بل لا يعقل أن يرى نفسه شيئاً مذكوراً فيقول أنا كذا . . « أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً » . ولقد ملك سليمان عليه السلام ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فما فتنه الملك عن حقيقة صلته بالله ، وظل يدعو الله دعاء المفتقر إلى المزيد من فضله : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

ما إذا انطفأ نور هذه العقيدة ، وخمدت مشاعرها فى القلب ؛ زايله شعور الافتقار إلى الله ، وحل محله شعور الاستهانة وعدم المبالاة ، وانتهى به أمره إلى معانى الاستغناء عن ذلك الباب الواسع الكريم ؛ فإذا قال أنا غنى أو أنا قوى ، أو أنا خير من فلان ، أو اختال فى الناس ، أو طغى أو بغى فذلك من فساد العمل ، وفساد القلب حين ينطفىء نوره ، وتسكنه أبالسة الشر ، وقديما قال فرعون المغرور : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ » وحكاها الله عن عاد : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ » وإلى هذا المعنى الدقيق يشير قوله تعالى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » : أى أن الإنسان إذا زايله الشعور بالافتقار إلى الله ، ورأى نفسه مستغنيا عنه سبحانه ؛ يذهب به الطغيان فى الأرض كل مذهب .

ونؤكد مرة أخرى للناس أننا بهذا القول لا نقصد تقريرات دينية نظرية ، وإنما

نحاول أن نكشف لهم عن ينابيع الصلاح ، وجذور الفساد . . . نحاول أن نكشف لهم عن الفطرة الواضحة التي يتبين عندها الخير والشر كفلق الصبح ؛ حتى نبني نهضتنا الجديدة القوية على أسس عميقة ثابتة لا على نظريات فارغة طارئة ؛ ولعلنا بهذا البيان ندرك علة ما نحن فيه من شطط الأغنياء وتعاسة الفقراء ؛ فليست العلة أن فلانا من الناس ملك الثروات وحاز من الكنوز ما حاز ، وإنما العلة أن هذا الفلان عمى عن الله وزايله شعور الاضطرار الفطرى ، ونسى قدر نفسه ولازمه شعور الاستغناء . . . ليست العلة الملك كما يقول الشيوعيون ؛ وإنما العلة فساد الحالة النفسية التي تركب صاحب الملك . وليس العلاج مصادرة الأملاك ؛ وإنما العلاج قيام الأوضاع الربانية التي تحدد علاقة الإنسان بالله ، وعلاقة الإنسان بمال الله ! !

ونستطيع أن نقرر ونحن مطمئنون إلى صدق ما نقول أن ما نرى من مظاهر الاضطراب والبلبلة والقلق في محيط الاقتصاد والاجتماع ناشيء عن فقدان الأوضاع التي ترسى عقائد الأفراد على أساس سليم ، وترعى في مال الله ما أراده سبحانه من مصلحة روحية واقتصادية للفرد والجماعة .

استخلاف لا تمليك

ولقد استرسل الرجل المؤمن في سورة الكهف يقرر لصاحبه هذه العلاقة ويبين أن مشيئة الله سبحانه هي التي توزع النعم على عباده ، ولا مشيئة فيها لغيره ، ولا قدرة لسواه . . . « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . فنحن على هذا الاعتبار أوعية نعم الله يستودع كلاً منا ما يشاء منها ويمسك عنه ما يشاء ، ولا اختيار لنا بإزاء مشيئته ولا علاقة لنا بنعمه أكثر من علاقة الوعاء بما يوضع فيه .

هذا هو الوضع الصحيح الذي يبرز علاقتنا بنعم الله ويحددها ؛ كلها لله سبحانه . . ونحن أوعية لها . والوعاء يحوز ولا يملك ؛ فإذا جاز للوعاء أن يدعى ملكية ما فيه جاز لأحدنا أن يدعى ملكية ما عنده ! !

وبهذا ترى بُعد الشيوعيين عن الحق حين ينكرون جعلها لله ، ويعترضون على مشيئته في أن يستودع أفراد خلقه ما يشاء من نعمه : أي حين يريدون أن يصبوا ما في الآنية على الأرض لتملكه الدولة . . . وترى كذلك حمق الرأسماليين حين يدعون ملك ما ليس لهم حق أو حين يسوغون للاناء أن يدّعى ملك ما فيه ! !

وهذا الذي قررناه يفضى بنا إلى تساؤل لا بد منه : ما مركز الإنسان في مال الله ؟ . . أو بماذا نسمى قيامه فيما بيده من متاع هذه الأرض ؟ .

إن قصة الإنسان الاقتصادية تتلخص في أنه مخلوق ضعيف ، جاء هذه الدنيا لا حول له ولا قوة ، ولا سبيل له إلى التصرف في شيء . فتلقته رعاية الله ، وأمده سبحانه بالعقل والقوة وشتى الملكات والمواهب ، فإذا الضعيف يقوى ، وإذا العقل ينشر سلطانه على على ما حوله ، وإذا من لا حيلة له يسعى ويحتال ، ويجمع في حيازته ما يستطيع من العرض والمال !

هذه قصة هذا المخلوق فما مركزه فيما يحوزه من متاع هذه الأرض ؟

لقد تقرر أن كل عمل الإنسان في الثروة إنما هو للاستهلاك ، فهو عمل لا يقرر لصاحبه حق الملكية بحال من الأحوال ، إذا كان معنى الملكية ملكية الخالق لما خلق ، فماذا نسمى وضع الإنسان فيما لديه من الثروة ؟

إن قصته الاقتصادية تفتح لنا السبيل إلى تكييف هذا الوضع !

لقد قذف من الغيب المجهول إلى هذه الأرض ضعيفاً لا يستطيع التصرف في شيء . . فوهب له الله ما وهب فتغير شأنه وتحول إلى وضع إيجابي أتاح له أن يتناول ما حوله بكل أنواع التصرف ، ولو لا هذه المواهب لظل على شأنه لا يدري شيئاً ، ولا يتصرف في شيء . . . ومعنى هذا أن الله سبحانه وهب تلك المواهب ليؤدي بها في هذه الأرض عن طريق الإنسان ما يشاء من عمل اقتصادي ، وكان من كرامة الإنسان أن اختير لتلك المهمة وأعين عليها بتلك المواهب . . أي أن الله أراد لهذا أن يستخلف الإنسان على ما خلق في هذه الأرض من حيوان ونبات وجماد ! وليس هناك من وضع يسيغه العقل وترتاح إليه الفطرة إلا هذا .

فعلاقة الإنسان بالمال أنه خليفة فيه لا أكثر من هذا ولا أقل ، فإذا سمى نفسه مالكا أو سماه غيره كذلك فهي ملكية التجاوز والمساهلة في التعبير ، أو هي الملكية التي تسير بصاحبها في الحدود المرسومة لكل من يندب للقيام في مال غيره وينوب عنه في إدارته !

ولا شك في أنك ترانا الآن نسير في محاذاة قول الله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . . . » (١) وهكذا يلتقي القول الفطري مع وحي الله سبحانه ، وينتهي البحث الحر إلى نفس ما قررت آيات الله في كتابه الحكيم .

ليس في الإسلام ملكية بالمعنى المعروف عند الرأسماليين ، وليس فيه شيوعية تهمل شأن الفرد ومواهبه وتسخره تسخير الدابة ؛ ولكن فيه « خلافة عن الله » ذات حدود مرسومة ، وسياسة مقررة معلومة .

(١) سورة الحديد : ٧ .

مع العارفين

الإمام الممتحن : أحمد بن حنبل

«أراد الناس منا أن نكون مثل احمد بن حنبل ، لا والله ، ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد» .

يحيى بن معين

قرأت سيرته منذ سنوات ، وتحدثت بها إلى بعض إخوانى فيما كانوا يحضرون من دروس الفجر ؛ فكنت كلما تمثلته فى خيالى بدا لى كأنه علم أشم ، شاهق الأركان ، تغيب فى زرقة السماء ذراه المتسامية الرفيعة ، وتمتد أكنافه فى عرض الأفق فلا يأتى النظر على غايته . . . فإذا أردتُ القول عنه شق علىّ أن أجد الطرَف الذى أتناول منه الحديث .

تلك واحدة ، والأخرى أنه حفر فى قلبى نقرة عميقة من الأسى الحى المتجدد ؛ حفرها بصبره العجيب على الفقر والمرض والمحنة والسجن ، والورع فى كل حال ؛ حتى أيأس أعلام زمانه أن يجروا فى مضماره ، وقطعهم أن يلاحقوا خطوه الواسع على متون الخشونة التى قدِّرت له ، حتى قال يحيى بن معين — وهو من هو جلالة شأن ورفعة منزلة — « أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ، ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد » . . . بل حتى وفدت عليه قلوب الناس مقرة له بالإمامة فى الورع والفقه والزهد والصبر ؛ قال إبراهيم بن متة السمرقندى سألت عبد الله بن عبد الرحمن عن أحمد بن حنبل : أإمام هو ؟ فقال : أى والله ! وكأفضل ما يكون الإمام ! ، إن أحمد أخذ بقلوب الناس ، إن أحمد صبر على الفقر سبعين سنة !

حفر هذه النقرة العميقة بصبره الجلد العجيب ، فما ذكرته إلا أحسست معينها الحى المتجدد يجيش فى أغوارها بوجدانه الرقيق الآسى . . . فيجتمع الإعجاب بالطود الأشم الساحق الشامخ بالأسى الرقيق العميق المتجدد ؛ وتأتلف منهما صورة أحببتها أصدق الحب : صورة لا تطل على بعينين ، ولا أذنين ، ولا وجه جميل أو دميم ، ولا جسم طويل أو قصير ؛ وإنما بمعنى ضخم : هو الحقيقة التى عاشت فى هذه الأرض حيناً باسم أحمد بن حنبل !

لقد كان شيخاً طويلا ، مخضوبا ، أسمر شديد السمرة ، ولكن شيئا من تلك الصفات لا أثر له فى الصورة الوجدانية التى تبدو لى فيها حقيقة هذا الإمام الجليل رضى الله عنه .

ومع ذلك كله فهو سهل واضح ، لا تعقيد فى شخصه ولا غموض ؛ شأنه فى ذلك شأن كل حقيقة سافرة موطأة الأكناف ... فإذا أردت أن تعرفه فاعرف عقلا نقياً شخّص لى الإسلام القوى الواضح ، لا فى أحكام وقواعد ونظريات ، وإنما فى متون سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فثبت همه على تلك المتون متابعاً خطو نبيه عليه السلام فى كل ما يعرض له من جليل الأمر أو دقيقه ، ومن حسيه أو معنويه ، لا يحيد عنها ولا يزيغ قيد شعرة ... وانظر ذلك الذى يسير على ما هو أدق من الحبل ، وتحته هوة سحيقة مهلكة ، كيف يكون همه فى ذلك الذى يسير عليه ، وجِدّه فى الاستمساك به ، وحذره أن يميل أو يهلك ؛ فذلك هو أحمد بن حنبل فى صدق متابعته للظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ورع وجد ووقار حتى عرف له ذلك أساتذته وشيوخه ؛ فكبر فى نفوسهم وعظمت لديهم مهابته وجلالته . قال خلف بن سالم : كنا فى مجلس يزيد بن هرون — المحدث الكبير فى واسط — فمزح يزيد مع مستمليه ، فتنحنح أحمد بن حنبل — وكان معنا فى المجلس — فقال يزيد : من المتنحنح ؟ فقلنا : أحمد بن حنبل ، فضرب بيده على جبينه وقال : ألا أعلمتمونى أن أحمد ها هنا حتى لا أمزح ؟ !

تمثل ذلك كله ، وتمثل معه صبراً عجيباً لا يدركه الوهن ولا الترخص ، صبراً يمتاز بالجدة والقوة حتى ليخيّل إليك وأنت تقرأ له الحادثة من الحوادث أن صبره فيها هو كل ما تجمع فى طاقته ، أو أنها استنفدت كل ما فى طبعه من طاقة الصبر ، وأنك لن تجد هذا الطبع إلا مقصراً متخلفا عن ذلك الشأو فيما تستقبل من بقية الحوادث .. فإذا انتقلت معه ، واستقبلت ، رأيت العجب ، وأدركتك الدهشة والحيرة مما يتلاحق أمامك من آيات هذا الطبع السخى الصبور .

ذلك كله هو أحمد بن حنبل : عقل نقى ... وهمة منعقدة بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وصبر لا يغيض له معين ، ولا تهن له قوة ، ولا تبلى له جدة !

بدأ يحضر مجالس العلماء الكبار ويستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنه خمس عشرة سنة أو ست عشرة يحليه طبعه الأبىّ ، وورعه العميق ، وصمته الوقور ، فما لبث أن ذاع صيته ، وصار المشار إليه من بين أقرانه حتى قال الهيثم بن جميل:

إن لكل زمان رجلا يكون حجة على أهله ، ولقد كان الفصيل بن عياض حجة على أهل زمانه ، وأظن هذا الفتى — إن عاش — سيكون حجة على أهل زمانه ؛ وهو يعنى أحمد بن حنبل .

ولقد كان يجمع الحديث جمع الإمام الفقيه ، لا جمع الإمام الراوية فحسب ؛ فكان يجيل عقله النقى فيما يحفظ ، ويمتاز بصدق مايستخرج من أحكام الفقه وأجوبة المسائل . حضر قوم من المشتغلين بجمع الحديث مجلس الفقيه الكبير أبى عاصم الضحاك ، فقال لهم : ألا تتفقهون وليس فيكم فقيه ؟ وأخذ يلومهم ، فقالوا فينا شاب فقيه سيجىء الساعة ، وكانوا يعنون أحمد بن حنبل . فلما حضر قال له أبوعاصم : تقدم .. فقال : أكره أن أتخطى الناس [1] ؛ فقال أبو عاصم : تلك أولى دلائل فقهه . . . أوسعوا له ، فأوسعوا فدخل حتى جلس بين يديه ، فألقى إليه مسألة فأجاب ، وألقى الثانية فأجاب ، وثالثة فأجاب ، ومسائل فأجاب ، فقال أبو عاصم : هذا من دواب البحر — يقصد أنه عجيبة من عجائب العلم .

وإنك لا تخطىء فى هذا الفقه خصائص الإمام ابن حنبل ، ونهجه فى ملازمة السنة والأخذ من آثار الصحابة رضى الله عنهم . قال إبراهيم بن هانىء : اختفى عندى أحمد بن حنبل ثلاثة أيام ، ثم قال : اطلب لى موضعا حتى أتحول إليه . قلت : لا آمن عليك يا أبا عبد الله . قال : إذا فعلتَ أفدتك فائدة من العلم . فطلبت له موضعا ؛ فلما خرج قال لى : اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثة أيام ثم تحول ، وليس ينبغى أن نتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرخاء، ونترك متابعته فى الشدة .. ولقد صلى يوم محنته والدم يسيل من مواضع ضرب السياط ، فأنكر عليه بعضهم ذلك ولفته إليه ، فقال : لقد صلى عمر رضى الله عنه بالناس وهو مطعون ينزف منه الدم .

هذا هو مذهبه فى العلم والفقه ، ولذا كان يرى من ضيعه العلم وسقوط منزلة المرء أن يسعى لتلقى أقوال الرجال فى الفروع والمسائل ، وينصرف عن سوق السنة وهى قائمة رائجة . قال موسى بن حزام : كنت أختلف إلى أبى سليمان الجرجانى لأتلقى عنه كتب محمد بن الحسن فى فقه أبى حنيفة ، فاستقبلنى أحمد بن حنبل عند الجسر ، فقال لى : إلى أين ؟ قلت: إلى أبى سليمان . فقال : العجب منكم ، تركتم ثلاثة يبلغون بكم النبى صلى الله عليه وسلم ،وأقبلتم على ثلاثة يبلغون بكم أبا حنيفة !! فقلت : كيف يا أباعبد الله ؟

---

(١) ورد فى سنة رسول الله كراهة تخطى رقاب الناس فى المسجد ومجالس العلم .

قال : يزيد بن هارون يحدّث الناس بواسط فيقول : حدثنا حميد عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبك أبو سليمان يقول : حدثنا محمد بن الحسن عن يعقوب عن أبي حنيفة ! قال موسى بن حزام فوقع في قلبي قوله ؛ فاكتريت زورقا من ساعتي ، فانحدرت إلى واسط فسمعت من يزيد بن هارون ، وقال عبد بن حميد : كنا في مسجد وأصحاب الحديث يتذاكرون وأحمد يومئذ شاب إلا أنه المنظور إليه من بينهم ، فجاء رجل من بلخ فدنا من أبي عبد الله فسأله عن شيء فأجابه . فقلب الشيخ عليه الكلام ذاهبا مذهب المعاظلين في الفروع والآخذين بالرأي — قال وكان أحمد قليل الكلام — فلم يرد عليه إلا أنه أشار بيده اليمنى هكذا : أي تنح عني ، ففطن بعض أصحابه إلى أنه سأله عما لا يعنيه . ثم قال أحمد للرجل يا هذا ، إنما مجلسنا مجلس مذاكرة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديث أصحابه ، فأما الذي تريد أنت فاقصد له مجلس ابن أبي دؤاد .

وفي سبيل تحصيل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم رحل من بغداد ماشياً إلى صنعاء ليسمع الحديث من عبد الرزاق محدث اليمن الكبير ، فمكث بها قرابة عامين ، وعاد منها إلى مكة مجهدا بما لقي من خشونة العيش ومشقة الحرمان ، قال أحمد ابن إبراهيم الدورقي : لما قدم ابن حنبل مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوبا ، وقد تبين عليه أثر التعب والنصب ، فقلت : يا أبا عبد الله ، لقد شققت على نفسك في خروجك إلى عبد الرزاق ، فقال : ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرزاق ! كتبنا عنه حديث الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، وحديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة .

بهذا الحب لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحرص على تلقيها ، والورع في تحرير متونها ، وشدة التثبت من حال رواتها علا شأنه ، ورسخت قدمه ، وسار ذكره ؛ حتى قدّمه العلماء ، وأقر له الأئمة بجلالة القدر ، فقال له الإمام الشافعي رضي الله عنه يوما : يا أبا عبد الله أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا ؛ فإذا كان خبر صحيح فأخبرني به حتى أتحول إليه . . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل فإذا وجدت الشافعي يقول في كتابه : حدثني الثقة ، أو أخبرني الثقة فهو أبي رحمه الله .

نارٌ على "تونس"

« إلى المغرب الجريح . . . في كفاحه الدامي

« وإلى فرنسا أم الحرية . . . التي لم تولد بعد ! ! !

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

عَلَى الشَّرْق نارْ !! وفى الشَّرْق عارْ !!

وللشَّرْق ثَارْ ! !

* * *

وَأَيْنَ النَّهارْ ؟ فَتَصْحُو الدِّيارْ

وَتَحْيَا مِنَ الْمَوْتِ تلكَ الدِّمارْ

وَتَنْزِعُ عَنْ سَاعِدَيْهَا الإِسَارْ

وَعَنْ مُقْلَتَيْهَا الأَسَى والصَّغَارْ

وَعَنْ جَانِبَيْهَا الرَّدَى وَالدَّمارْ

وَذُلاًّ تَهِيمُ بِهِ فى القِفَارْ

تُغَنِّى لِمَنْ أَوْرَدُوهَا الْبَوَارْ

وَسَاقُوا مَوَاطِنَهَا لِلْخَسَارْ . .

بَقَايَا عبيدٍ بأشْلاء دارْ

أهذا هو الشَّرْقُ ؟! يا لَلْمَخَارْ !!

* * *

عَلَى الشَّرْق نَارْ وَفِي الشَّرْق عارْ

وللشّرْق ثارْ ! !

* * *

وَأَيْنَ اللّجَامْ لِخَيْل الظَّلَامْ

وَمِهْمَازُهَا سَاهِرٌ لا ينَامْ ! !

لقد زحفت في صُدُور النِّيَامْ . .

وَخَلَّتْهُمُ مَرْتَعاً لِلْحِمَامْ

وَأَعْرَاضَهُمْ شَهْوَةً للطَّغَامْ . .

وَذَلَّ الْأُبَاةُ ! وَهانَ الْكِرَامْ !

وَمَسَّتْ سَمَا اللهِ كَفُّ اللِّئَامْ

فَدَاسَتْ بِقُرْآنِهِ فِي الرَّغَامْ

وَمَا زَالَ فِي الشَّرْق صَرْعَى مُدَامْ

يَصِيحُونَ : إِنَّا حُدَاةُ الأَنَامْ ! !

* * *

عَلَى الشَّرق نارْ . . وفي الشّرق عارْ . .

وللشَّرْق ثارْ . .

* * *

وأَيْنَ الرِّجالْ ؟ وكيفَ النِّزَالْ ؟

وماذا بكفَّيْهِ غيرُ الخيالْ . .

وحالٌ منَ القَيْدِ تبكِي لِحالْ !

ومَصْلُوبَةٌ في مَغيب التِّلالْ

مع الرِّيح صَرْخاتُها لا تَزالْ
تَبُثُّ تباريحَهـا للْجبالْ
وتَهتِفُ بالشَّرْ قِ .. حانَ النِّضالْ
فَحطِّمْ عَلَى القَبْرِ سَدَّ الْمُحالْ
وقُمْ سيِّداً ... أوْ فَعُدْ لِلزَّوالْ

***

على الشَّرق نارْ .. وفى الشَّرقِ عارْ .
وللشرق ثارْ !!

***

على الشَّرقِ نارٌ ستُفْنى الطَّغاهْ
وتأكُلُ من سَدَّ يوْماً خُطاهْ
وَمَنْ قيَّدُوهُ وشَلُّوا ضُحاهْ ..
وفى الشَّرق عارٌ شربْنا لَظَاهْ
وسِرْنا مِنَ الخِزْى فوْقَ الجِباهْ
عَبيداً نُصَلِّى لِسَوْط العُتاهْ
ونُعْلِى الوُجوهَ لِوَجْه الإلهْ ..
وللشَّرق ثارٌ عرَفْنا مَداهْ
إذا أذَّنَتْ لِلجهاد الصَّلاهْ
دفنَّا مَعَ الغاصِبين الحياهْ !!

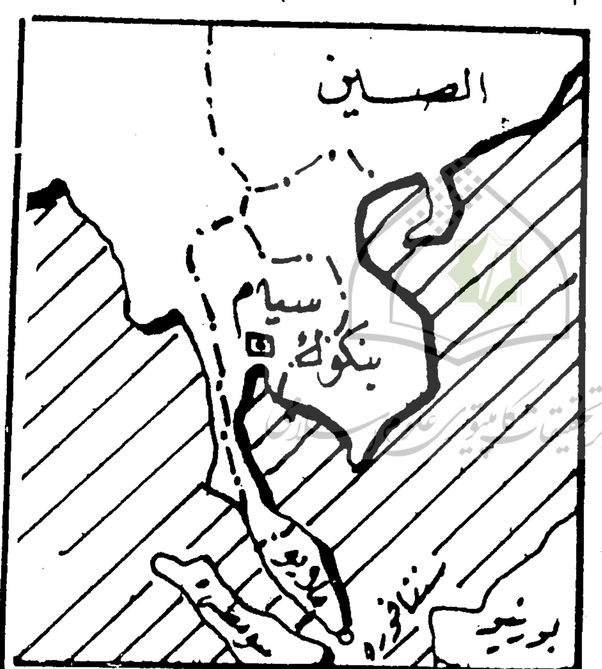
***

على الشرق نارْ .. وفى الشرق عارْ ..
وللشرق ثارْ !!!

إخواننا فى الملايا وسيام

الملايا :

● تقع شبه جزيرة الملايا فى الجنوب الشرقى من آسيا ، وقد حمل نورَ الإسلام إليها قوافلُ المسلمين التجارية من العرب والهنود ، وانتشر فيها الإسلام حتى أصبحت كلمة « ملايوى » ترادف كلمة « مسلم » ومضت قوانين ولاياتها على أن الملايوى لا يكون إلا مسلماً . ومن الطريف أنه إذا أسلم صينى من سكان الملايا «مثلا» قيل عنه إنه أصبح ملايويا . . . هكذا تغلغلت روح الإسلام فى هذا الجزء من العالم .



● يبلغ عدد سكان الملايا حوالى خمسة ملايين ، منهم ثلاثة ملايين مسلم والباقون صينيون نزحوا إليها من قديم ، واشتغلوا بالتجارة ونبغوا فيها حتى ليسمون « يهود الشرق الأقصى » ولهم السلطان الأول على السوق الاقتصادية وخاصة فى سنغافوره

● بدأ الانجليز ينشرون شباكهم فى الملايا فى أواخر القرن الثامن عشر عن طريق الشركات التجارية ، ثم اشتروا سنغافوره من سلطان جهور إحدى الولايات ، وعمروها حتى أصبحت ميناء هاما وهى الآن مستعمرة . أما داخل الملايا فتقسمه تسع ولايات ومحميتان وهذه المقاطعات هى : سلانو ، وبيرا ، وباهان ، وكيدا ، وقلنتين ، وترنجانو ، وبيرلس . والمحميتان هما : ملاكا ، وبنين . ولكل مقاطعة سلطان ومجلس دولة يعينه السلطان باستشارة المندوب السامى الإنجليزى . وللمقاطعات مجلس اتحادى يعينه هذا المندوب ، والقوانين السائدة هى الإنجليزية فيما عدا الأحوال الشخصية والمواريث والأوقاف ؛ فالمعمول به فيها هو الشريعة الإسلامية . ولم يكن الإنجليز يسمحون فى قضايا المواريث بالرجوع إلى حكم الشريعة قبل عشرين سنة .

● يبلغ سكان مستعمرة سنغافورة حوالى مليون منهم ثلاثمائة ألف مسلم لا يمثلهم فى المجلس التشريعى إلا ٣ من ١٦ عضوا .

● فى سنغافورة وسائر مقاطعات الملايا جمعيات إسلامية كثيرة منها : جمعية الدعوة

الإسلامية ، والشبان المسلمين . ولكن نشاط هذه الجمعيات رغم ما يقوم به أعضاؤها — جزاهم الله خيراً — لا يزال غير كاف لتلبية حاجة مسلمى الملايا ، والاستفادة من استعدادهم الطيب وخاصة فى المقاطعات الداخلية .

● هناك « رابطة عربية » تضم العرب المقيمين ، ويرأسها الأستاذ الفاضل السيد إبراهيم بك السقاف ، وهو رئيس جمعية الدعوة الإسلامية كذلك — وتوجد مدارس عربية تحاول الاحتفاظ باللغة العربية فى أبناء العرب الذين انخرطوا مع أهل الملايا وغلبتهم لغتهم ، كما تحاول نشرها فى غير العرب . وأهم هذه المدارس مدرسة الجبير فى سنغافورة .

فى سيام :

يبلغ تعداد سكان سيام حوالى ١٧ مليونا ، منهم مليونان من المسلمين ، والباقون بوذيون . ودخل الإسلام سيام مع التجار المسلمين من العرب والهنود ، ولا يزال كثير من مسلمى سيام يعتزون بأصلهم العربى وإن كان لا يتكلم العربية إلا قليل منهم درسوها فى سيام فى مدارس عربية لا تزال موجودة بها ، أو أتيح لهم أن يدرسوا بالأزهر الشريف فى مصر . ولا يكاد يعرف الداخل إلى سيام أن فيها مسلمين إلا إذا جدّ فى البحث عنهم وخاصة فى (بنكوك) العاصمة التى يسكنها ٨٠٠,٠٠٠ منهم ١٠٠,٠٠٠ مسلم ؛ ولكنهم موزعون فى أطرافها ، ولهم فيها ثمانون مسجداً ليس منها واحد يطل على شارع عام . ومن بين أعضاء البرلمان (٢٤٦) ليس للمسلمين إلا ٧ أعضاء ، ونسبتهم فى الوظائف لا تعدو ٥ ٪ وفى أثناء الحرب الماضية حرمت الحكومة على المسلم أن يكون ضابطاً بأية رتبة فى الجيش وليس لهم وزير واحد . ولكن حين تلقاهم تجدهم — بالرغم من ذلك — ينطوون على عاطفة إسلامية عالية تجعلهم صادقى الشوق واللهفة إلى كل مسلم يفد عليهم من أى ناحية من ديار الإسلام .

وفى سيام جمعيات إسلامية مختلفة عرفنا منها جمعية الإصلاح ، والجمعية السلفية ، وأنجمن إسلام ، والأصدقاء المسلمون . ولجمعية الإصلاح مسجد جميل (فى Bangkok Noi) كلف إنشاؤه حوالى ١٥,٠٠٠ جنيها . وللجمعية السلفية مدرسة فى دارها لتدريس العلوم المختلفة . ولكن هذه الجمعيات على كثرتها لا تزل غير قادرة على جمع شمل مسلمى سيام ، وبعث الروح الإسلامية فيهم ، وإن كانت تتفق جميعها فى أنهم مستعدون لذلك ؛ وخاصة فى القرى فى داخل سيام حيث يكوّنون الأغلبية فى بعضها . على أن مما يبشر بالخير أن هناك وعياً جديداً مباركا بين نفر من الشباب الصالح نسأل الله أن يهيء لهم من أمرهم رشدا .

فى أفق العالم الإسلامى

الجامعة الإسلامية :

كان للدعوة التى وجهها معالى السيد ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان إلى الدول الإسلامية المختلفة وتلبية هذه لها اهتمام شديد فى مختلف الأوساط ، وقد كنا نؤثر السكوت والتريث حتى يتبين وجه هذه المحاولة ومداها ، ولكن السرعة التى بدت بها ، وطبيعة الظروف التى تحيط بها ، تجعلنا نبادر إلى إبداء رأينا ، وهو ليس رأياً فى المشروع الجديد الذى لا نزال نجهل حقيقته ، ولكنه رأى فى الفكرة العامة من حيث هى : « فكرة الجامعة الإسلامية » حلم المسلمين القديم ، حتى نواجه الأحداث وفى يدنا ميزان نزن به كل جديد ، ونعرف به ما لنا وما علينا ، فنحن المسلمين ما أضرنا مثل انطلاق أكثرنا فى كل أموره إلى غير وجهة واضحة ، ومثل تعطل ملكة التفكير فينا ، فأكثرنا لا يفكر ، لا يستعمل هذه الآلة التى ركبها الله فى رأسه ليدرك النتائج من مقدماتها ، وليكون له فى آراء الناس رأى ، ومع شئون الحياة علاقة واضحة : هدف واضح وتفكير واضح وإنتاج واضح . ولو أننا معاشر المسلمين حين خلت قلوبنا وعواطفنا ظلت عقولنا تعمل ، لأبقينا على (دنيانا) نوعا من الإبقاء ، فإن (للدنيا) التى نقضى فيها أعمارنا بأمر الله سنناً سنها الله ، ونواميس يشترك فى القدرة على إدراكها المسلم والكافر ، فإذا سبق الكافر إلى سنن الله فى (دنياه) يتعرف عليها ويعمل بها فالغلبة له من غير شك ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وقوافل الكفر التى اتصلت مؤامراتها على الإسلام فى تاريخنا الحديث والقديم ، أهل دنيا يجيدون فنها ، ويعيشون فى مائها المكر بخياشيم منكرة تتحسس صيدها .

حدثنى وزير دولة إسلامية كبيرة أوفدته دولته مندوباً لتفقد شئون رعاياها فى المنطقة التى يحتلها اليهود من فلسطين ، فسافر إلى تل أبيب ، واجتمع بموسى شرتوك عدة مرات ليناقشه فى مسائل تتصل بمهمته ، وفى إحدى هذه المرات قال له شرتوك : « لا تظن أننا نماطلك أو أننا لا نقدرك قدرك فنحن نعرفك تماما ، ونعرف أنك عملت فى مكان كذا ومكان كذا و ... إلخ » وأخذ يقص عليه نواحى هامة من تاريخ حياته ، وكان هذا الحديث بعد أيام من إعلان انتداب هذا الوزير إلى تل أبيب . . وهكذا يعمل اليهود عن دراسة دقيقة لأوضاعنا ورجالنا . واليهود ليسوا إلا فصيلا من جيش لجب دائب العمل ليلا ونهاراً فى محاربة الإسلام ؛ وإن كانوا أخبثه شراً وأخسه نفساً .

فماذا أعددنا نحن المسلمين لمواجهة هذه الحرب المنظمة وهؤلاء الأعداء الأذكياء ؟ . لا يجوز أن نتهالك متعللين بالمعاذير فإننا وإن كنا لا نملك الوسائل التى يملكها أعداؤنا الكثيرون إلا أننا — على الأقل — نملك رؤوسنا ونفوسنا ، ونملك أن نحرر هذه الرؤوس من الدخل ومركب النقص والاستهتار بنواميس الحياة ، وأن نحرر هذه النفوس من أسباب ذلك كله وآثاره وأهمه العبث وميوعة الإرادة والغفلة عن أمر الله الحق : فليس الإله الذى أمر المسلمون أن يعبدوه هو الإله — سبحان ربنا — الذى تصوره الأهواء والشهوات ، ولكنه الإله الحى القاهر الذى جعل قوى الحياة أمانات ، وقال للناس فى قرآنه : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » والذى يخاطبهم فى هذا القرآن ويكرر الخطاب : أفلا يعقلون ؟ — أفلا يتفكرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ . . .

* * *

هذا استطراد دعانا إليه الحديث عن فكرة الجامعة الإسلامية ، والرغبة فى أن نؤسس جهودنا دائماً على أساس واضح ، وأن نعرف الفكرة من كل شىء قبل الخوض فيه حتى نأخذ أو ندع ، ونتقدم أو نتأخر ونحن فى كل ذلك على بينة .

لهذا فقد استرحنا كثيراً حين صرح السيد فاضل الجمالى فى القاهرة بأن قيام اللجنة الاستشارية بين الحكومات الإسلامية ليس معناه أى تكتل إسلامى أو جامعة إسلامية ، استرحنا رغم شوقنا الشديد إلى أن نرى المسلمين مجتمعى الشمل ، وسبب هذه الراحة اشفاقنا على فكرة « الجامعة الإسلامية » كما يفهمها الغيورون على دين الله والعارفون بشريعته أن تتأثر بمحاولة قد تبلغ فى الإخلاص المدى ، ولكنها لا تملك من الوسائل ولا من الظروف المحيطة ما يجعل فى قدرتها تحقيق هذا الأمل الجميل . ويتلخص ذلك عندنا فى أمور ثلاثة :

(الأول) : الجامعة الإسلامية : رابطة من نوع آخر غير الذى تعارفت عليه شعوب هذا الزمان ، فهى ليست رابطة تأخذ رصيدها من حدود أرضية تضيق وتتسع ، ولا من وحدة دم يفور ويبرد ، ولا من حاجات بطن تجوع وتشبع ، ولا من أمجاد تاريخ يعيش به الأحياء على هيا كل الموتى .. ولكنها رابطة لا تكون إلا فى واقع قائم يرتبط فيه أهل هذه الجامعة الإسلامية بالمثل الأعلى الثابت الذى حدده الإسلام ، يؤمنون به ويدعون إليه ولا يعتزون إلا به ، فهى : (جامعة إسلامية) لأن أهلها جمعهم (الإسلام) : إسلام عواطفهم لله رب العالمين ، وإسلام أمور حياتهم لأحكامه . وبغير ذلك لا تكون جامعة إسلامية ، ولكنها تكتل على عصبية جديدة لا يعرفها الإسلام . ونحن نحيل القارىء الكريم إلى ما كتبناه عن ذلك فى عدد (المسلمون) الماضى تحت عنوان : (خطر رد الفعل) .

(والثانى) : التأثير الأجنبى : وهو التهمة التى تتهم بها أكثر محاولات تجميع شمل المسلمين اليوم وهى تهمة تحيك فى أنفس كثيرين حين يرون أن خطر الشيوعية هو الذى يشغل الكتلة الغربية كل مشغله ، وحين يقال إن هذه الكتلة تريد استغلال الإسلام فى محاربة الشيوعية . ومعنى ذلك أنها حركة لحسابها لا لحساب الإسلام والمسلمين . هؤلاء قد لا ينكرون وجوب الاستفادة من ظروف العالم السياسية ، ولكنهم يترددون كثيراً فى الاطمئنان إلى أن واقع الدول الإسلامية المختلفة السياسى يمكن أن تتحقق معه هذه الاستفادة ، بل إن بعضهم ليذهب فى تفسير تصريح السيد فاضل الجمالى : بأن الاجتماع لا يقصد به أى تكتل إسلامى ، إلى أن سببه الضعف القديم فى إبداء رأى الإسلام .

ونحن بدورنا لا نستطيع أن نتحمل التبعة فنطمئنهم .

(والثالث) : العلاقة بين الحكومات (الإسلامية) المختلفة ودعاة الحركة الإسلامية فيها : تجعلنا نعتقد أن خطوة اجتماع هذه الحكومات كان يجب أن تسبقها خطوة أخرى وهى اقتناعها عملياً بصلاحية الإسلام للتطبيق ، وتمكين العاملين له من نشر دعوتهم واستجابتها لاقتراحاتهم فى تطهير مختلف الأوضاع من كل ما لا يرضى الله ولا يتفق مع تعاليم الإسلام . .

والباكستان تستطيع فى هذا أن تؤدى دوراً جليلا حين تجعل أوضاعها الداخلية صورة صادقة للاسلام ، وتكون بذلك قدوة عملية لسواها من الحكومات .

وبعد . . فنحن وإن كنا نرى فصل فكرة الجامعة الإسلامية فى ذاتها عن هذه المحاولة وعن كل محاولة مثلها حتى نبقى على الفكرة واضحة فى نفوس المسلمين إلى أن تتوفر أسبابها ، وحتى تكون هى الميزان الذى يواجهون به كل محاولة فيشجعونها ويوجهونها وجهة الخير . نحن وإن كنا نرى ذلك إلا أننا نرجو أن تكون فى هذه المحاولة الجديدة ، وفى المؤتمرات الكثيرة من

وقت إلى آخر ، عوامل تهيء الأسباب الطبيعية للجامعة الإسلامية كما ينشدها كل مؤمن . وأهم ما ينفع فى هذا السبيل رفع الحواجز الكثيرة فى نظام التأشيرات والجمارك بين الدول الإسلامية ، والتقارب الاقتصادى والثقافى فيما بينها والتعاون السياسى فى قضاياها .

قضية وادى النيل :

أعجبتنا الرسالة التى كتبها فضيله الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العـام للاخوان المسلمون إلى دولة رئيس الوزراء ، ووجدنا فيها تلخيصاً طيباً لما تحتاجه قضية الوادى فرأينا أن نعيد نشرها فى هذا العدد من (المسلمون) لحضرات قرائها فى خارج مصر :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . وبعد :

فإن ماحملنا الله من أمانة الجهر بالحق والنصح للحاكم يتقاضانا أن نصارح دولتكم بما يخالج نفوس الأمة المصرية من تعجل الفصل فى قضيتها الكبرى وتحقيق أهدافها فى الجلاء والوحدة ، وبما بات يساورها من الضيق بهذه الأشهر الستة التى انقضت منذ إلغاء المعاهدة دون أن تصيب البلاد ثمرة الكفاح الصادق الذى مهرته بدماء شبابها الأبرار الذين حملوا عبء الكفاح فى سبيل الله والوطن:

« فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

والإخوان المسلمون يعتقدون أنه مامن وطنى كريم تظله سماء الوادى — حاكما أو محكوما — إلا وهو يكن لبلاده الحب ويتمنى لها الخير والمجد . وهم أحسن ببنى وطنهم ظناً من أن يتصوروا أن هناك خلافا على القضية أو حيدة عن الحقوق الوطنية . ولكن ذلك كله لا يعصمنا — وقد طال الانتظار دون جدوى — من الإشفاق أن يكون الزمن فى صالح المستعمر ، وأن يكون الإنجليز وحدهم الرابحين من تثاقل الخطوات التى تتعثر فيها القضية الوطنية ، ومن الهزات التى تتناول مقاعد الحكم وتلقى فى روع المستعمر — ولو خطأ — أن المصريين فى شغل بأنفسهم ومنازعاتهم الداخلية عن قضية الجلاء والوحدة .

من أجل ذلك يا صاحب الدولة رأينا أن نتقدم إلى دولتكم بالمشورة الصادقة فى علاج الموقف الخارجى والداخلى مستمدة من إيماننا بالله وغيرتنا على الوطن وبراءتنا من الهوى واستقلالنا بالرأى « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

يا صاحب الدولة :

أما الموقف الخارجى فمن البداهة بمكان أن الإنجليز لا يستجيبون لآمالنا الوطنية ولا يفكرون فى الجلاء إلا بقدر ما يصيب أقدامهم من زلزلة واضطراب ، وما يتعرض له استقرارهم ومصالحهم المادية والاستراتيجية من خلل وإقلاق ، فتقبلها منا يا صاحب الدولة نصيحة خالصة لم تتكل عن دائها لكل من استنصحنا ممن حملوا هذه الأمانة قبلك . إن الكفاح وحده هو سبيل الجلاء والوحدة . الكفاح الذى ينتظم الحاكم والمحكوم ، ويتلاقى تحت ألويته الكبير والصغير ، ويبدو فيه العزم والإصرار على تحقيق الأهداف ، وتؤخذ الأهبة لاستمراره وشموله بحشد الكفايات العلمية والاقتصادية والسياسية والحربية والأخلاقية فوق ذلك كله لتنظيم المقاطعة ودوام المناجزة بما يزلزل الأرض تحت أقدام الغاصبين ، ويجعل أيامهم فى الوادى خسارة يفرون منها ومغرما لا يستطيعون الصبر عليه .

فإذا انشرح لذلك صدرك يا صاحب الدولة فخير البر عاجله والله معك وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا ، والشعب بجانبك متحفز لأداء تكاليف الحرية حتى يدركها وإن غلت واثقاً بوعد الله الكريم « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .